مُقَدِّمَاتُ التَّفَاسِيرِ

مَوْضُوعَاتُهَا وَفَوَائِدُ مِنْهَا

تأليف

عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِهِ الْعَوَاضِيّ

مُقَدِّمَاتُ التَّفَاسِيرِ

مَوْضُوعَاتُهَا وَفَوَائِدُ مِنْهَا

الطّبْعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

حُقوق الطبع محفوظة للمؤلف

النَّاشِر

غَافِق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فقد جرت عادة مصنفي الكتب أن يقدموا بين يدي محتوى مصنفاتهم مقدمات تكشف عن موضوعات كتبهم، والأسباب الداعية إلى تصنيفها، وبيان طريقتهم في تلك الكتب، ويذكروا أشياء أخرى يحتاجها القارئ قبل أن يلج إلى قراءة الكتاب.

ومن أغراضهم في ذلك: بيان أهمية الكتاب وموضوعه، والترغيب في قراءته، وإعانة القارئ ببعض التنبيهات التي تفتح له مغالق الكتاب، وتعينه على فهمه ومعرفة مراميه.

كما أن من أغراض تلك المقدمات: الإشارة إلى الجهد الذي بذله الكاتب، و إعذاره في بعض الأمور التي سيذكرها ولا يوافقه عليها بعض القراء، فيكون بتنبيهه في مقدمته قد بسط عذره.

أما في الدراسات الأكاديمية فلمقدمات البحوث منهج خاص متعارف عليه لدى أهلها قد يتناول ما سبق ذكره، ويزيد على ذلك ذكر أهداف البحث، والصعوبات التي واجهت الباحث، ومنهجية الباحث في بحثه، وخطة البحث، وغير ذلك مما تزخر بها مقدمات رسائل الدراسات العليا وأبحاثها.

غير أن هناك مصنفين يضيفون إلى ما تقدم مباحثَ ومسائل وفوائد في مقدمات كتبهم، يرون حاجة القراء لها، وقد تكون تلك المباحث العلمية تتعلق بالعلم الذي ينتسب إليه الكتاب، أو تتعلق بالكتاب نفسه ومحتواه، أو غير ذلك.

وهذا يشعرنا بأهمية قراءة مقدمات الكتب قبل الشروع في قراءة مادتها، وينبهنا إلى خطأ كبير يقع فيه بعض القَرأَة-بسبب الملل، أو العجلة، أو الغفلة أو أسباب أخرى-هذا الخطأ هو تجاوز المقدمة إلى أصل مادة الكتاب، دون المرور بقراءتها.

ولا شك أن حال من وقع في ذلك الخطأ كحال الذي يريد دخول البيوت من غير أبوابها، أو يفتحها بغير مفاتيحها، أو يسير في ليلة مظلمة بغير مصباح يضيء له سبله فيها؛ فالكتب هي بيوت للعلم، ومقدماتُها أبوابها ومفاتيحها ومصابيحها التي تكشف عن محتوى الكتاب وظروف تأليفه، وتمهد للقارئ الطريق إلى استيعاب مضامينه، قبل أن يتوغل في مهامه الكتاب بلا رائد يرشده، ولا إمام يسدده،

فيستحسر عندئذ فيضع الكتاب من يديه، أو يسيء بالكاتب الظنون، ويسلط عليه سهام الانتقاد.

فعلى سبيل المثال: نجد الإمام النووي-الفقيه المحدِّث- رحمه الله- يذكر في كتابه(التبيان في آداب حملة القرآن) أحاديثَ ضعيفة، وقد حكم عليها نفسُه بالضعف في بعض كتبه، ومع ذلك يذكرها.

لكن من قرأ مقدمته سيعرف غرضه ورأيه في ذلك، فقد قال في مقدمة الكتاب السابق: "واعلم أن العلماء من أهل الحديث وغيرهم جوزوا العمل بالضعيف في فضائل الأعمال، ومع هذا فإني أقتصر على الصحيح فلا أذكر الضعيف إلا في بعض الأحوال"(١).

إن مقدمات الكتب-إضافة إلى ما سبق- لها أهمية كبيرة؛ ففيها -إذا أحسن كاتبها-ترغيب وتشويق للقراء بقراءة الكتاب، وعدم مغادرتها إلا إليه، فمقدمة الكتاب هي وجهه، والوجه مجمع الحُسن أو عكسه، وكاتبها كالتاجر الذي يروج لبضاعته، أو كالداعي إلى مائدة فإن أحسن الدعوة، وتلطف للمدعو أقبل عليه جم غفير حتى ولو كانت المائدة ليست بالمستوى الذي كانوا يرجونه.

فلذلك كان على كل قارئ يريد الانتفاع بما يقرأ من الكتب، ويعرفها على الحقيقة؛ أن يقرأ مقدماتها برويّة، ومن ثم يخوض عُبابها بعد ذلك.

لقد دعاني إلى كتابة هذا البحث أنني -خلال تحضيري لرسالتَي الماجستير

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص: ٣).

والدكتوراه- كنت أرجع إلى مقدمات بعض التفاسير لأمور بحثية فلاحظت فيها مادة غنية بالفوائد العلمية، ودراسةِ مباحث قرآنية كثيرة تستحق أن يرجع إليها الباحث قبل النظر في كتب علوم القرآن التي جاء بعضها بعدها بزمن؛ فبعض من كتب في علوم القرآن كانت تلك المقدمات من موارده الأساسية؛ فمن باب الحرص على السند العالي دون النازل، والمصدر دون المرجع؛ كان الرجوع إليها مقدماً على تلك الكتب التي نقلت منها .

وفائدة أخرى لتلك المقدمات التفسيرية: أنها تكشف عن مناهج المفسرين في تفاسيرهم، وتذكر بعض المعلومات المتعلقة بتلك التفاسير؛ فحري بالباحث أو القارئ أن يرجع إلى تلك المقدمات قبل أن يقرأ أو يبحث في تفسير الآيات.

لهذا قمت بجرد عشر مقدمات لتفاسير مشهورة متداولة، كان مؤلفوها مختلفي المناهج والأقطار والأعصار، ابتداء من القرن الرابع إلى القرن الرابع عشر الهجري، **وهذه التفاسير هي:**

١- **جامع البيان في تأويل آي القرآن، لأبي جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ).**
٢- **النكت والعيون، لأبي الحسن الماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ).**
٣- **الكشاف، لأبي القاسم الزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ).**
٤- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد ابن عطية الأندلسي (المتوفى: ٥٤٢هـ).**
٥- **زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ).**

٦- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، لأبي عبد الله القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ).

٧- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ).

٨- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء ابن كثير الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ).

٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الثناء الآلوسي(١) (المتوفى: ١٢٧٠هـ).

١٠-تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لابن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ).

وكان هدفي من هذا الجرد العلمي: إبراز بعض ما تكتنزه هذه المقدمات من حقائق عن هذه التفاسير الذائعة الصيت، واقتناص بعض الفوائد منها، ولفت أنظار القراء والباحثين إلى ما فيها من درر، ومصابيح مضيئة في علم التفسير والعلوم المتعلقة به.

وقد استعنت بالله تعالى في قراءة المقدمات المذكورة، وجمعِ مادة البحث، وتقسيمه وصياغته، **حتى جاء بعد المقدمة مشتملاً على ثمانية مطالب وخاتمة**

---

(١) قال الزركلي عن لفظ(الآلوسي): " نسبة إلى بلدة على الفرات قرب عانة، سماها ياقوت في معجم البلدان (آلوسة) و(ألوس)، وسماها محب الدين النجار في تاريخ بغداد، كما نقل ابن خلكان في الوفيات (آلس) بالمد وضم اللام، وجاءت في اللباب لابن الأثير (ألوس) بضم الهمزة، وفي شذرات الذهب (ألوس) بفتح الهمزة، وفي مجلة لغة العرب (آلوس)، وفي مجلة المجمع العلمي العربي رسالة أولها: (أما بعد، فيقول الفقير إلى الله تعالى محمود شكري الآلوسي) كتبها بالمد، واستفتينا أحد فضلاء الآلوسيين ببغداد فأجاب: المعروف عندنا المد". الأعلام للزركلي (١/ ٢٥).

وفهارس. وهي الآتي:

المطلب الأول: موضوعات المقدمات.

المطلب الثاني: وصف القرآن.

المطلب الثالث: الحديث عن علم التفسير وأهله.

المطلب الرابع: تسمية المفسر لتفسيره.

المطلب الخامس: حديث المفسر عن تفسيره.

المطلب السادس: كلام المقدِّمين عن بعض الكتب ومؤلفيها.

المطلب السابع: كتب لأصحاب المقدمات أشاروا إليها في مقدماتهم.

المطلب الثامن: منتقى الفوائد.

الخاتمة.

الفهارس.

أرجو أن أكون قد وفّقت في هذا العمل، سائلاً الله تعالى أن يبارك الجهد، ويمنح العبد الفقير الأجر الكبير.

وكتبه:

عبد الله بن عبده العواضي

١٤٤١/٣/٧هـ، ٢٠١٩/١١/٤م.

المطلب الأول
موضوعات المقدمات

استهلت هذه المقدمات العشر بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم شرع كل مقدِّم في ذكر موضوعاتٍ تباينت وجهات نظر هؤلاء المفسرين العشرة فيها بين مكثر ومقل، وموافق لمن قبله في طرحها، أو منقص منها أو زائد عليها بموضوعات أخرى.

وسآتي في هذا المطلب إلى ذكر موضوعات تلك المقدمات، مع تعقيب كل مقدمة ببعض الملحوظات.

أولاً: جامع البيان في تأويل آي القرآن، لأبي جعفر الطبري:

تكلم أبو جعفر رحمه الله في مقدمة تفسيره بعد خطبة الاستهلال عن منزلة الرسل، وما اختص به بعضهم، وخص منهم نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام، ثم تكلم بأوصاف جميلة عن القرآن، ثم تكلم عن أهمية العناية بتوضيح كتاب الله، ثم ذكر أنه سيكتب في ذلك كتابًا يوضح معاني كلام الله وهو تفسيره هذا.

ثم شرع بعد ذلك في سَوق مباحث في علوم القرآن، وقد جعل عناوينها على قسمين: الأول يقول فيه: (القول في ...)، ثم يسوق معلوماته، والثاني: (ذكر بعض الأخبار في...)، ثم يذكر تلك الأخبار.

وهي كالآتي:

١ – القول في البيانِ عن اتفاق معاني آي القرآن، ومعاني منطِق مَنْ نزل بلسانه

القرآن من وَجْه البيان -والدّلالة على أن ذلك من الله تعالى ذكره هو الحكمة البالغة- مع الإبانةِ عن فضْل المعنَى الذي به بَايَن القرآنُ سائرَ الكلام. ومما ذكر فيه: فضل نعمة الإبانة عما في الضمير باللسان.

٢- القول في البَيَان عن الأحرف التي اتفقت فيها ألفاظ العرب وألفاظ غيرها من بعض أجناس الأمم.

٣- القول في اللغة التي نزل بها القرآن من لغات العرب.

٤- القول في البيان عن معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنزل القرآن من سبعةِ أبوابِ الجنة)، وذكر الأخبار الواردة بذلك.

٥- القول في الوجوه التي من قبلها يُوصَل إلى معرفة تأويل القرآن.

٦- ذكر بعض الأخبار التي رُويت بالنهي عن القولِ في تأويل القرآن بالرَّأي.

٧- ذكر الأخبار التي رُويت في الحضّ على العلم بتفسير القرآن، ومن كان يفسِّره من الصَّحابة.

٨- ذكر الأخبار التي غلِطَ في تأويلها منكرو القول في تأويل القرآن.

٩- ذكر الأخبار عن بعض السلف فيمن كان من قدماء المفسرين محمودًا علمه بالتفسير.

١٠- ذكر القول في تأويل أسماء القرآن وسُوَره وآيهِ. وهنا ذكر أسماء القرآن واشتقاقها ومعناها، ومعنى السورة والآية واشتقاقهما.

١١- ذكر القول في تأويل أسماء فاتحة الكتاب.

١٢- ذكر القول في تأويل الاستعاذة.

ملحوظات على مقدمة الطبري:

١. أنها مقدمة مسندة الآثار من لدن المؤلف إلى القائلين، في الغالب.

٢. تميز الطبري بالسبق في مباحث هذه المقدمة على غيره من المفسرين الذين تناولناهم في هذه الدراسة. وقد نسج بعضهم ممن جاء بعده على منواله فيما ذكر، واستفاد منه.

٣. مقدمة طويلة، لكنها مفيدة.

٤. لم يتحدث الطبري عن نفسه ولا عن تفسيره بمنطق الفخر والتميز، على خلاف بعض المفسرين، كما سيأتي.

٥. جعل الطبري القول في أسماء الفاتحة ضمن مباحث المقدمة على خلاف المفسرين الآخرين الذين ذكروها في تفسير الفاتحة. ثم تكلم عن الاستعاذة، ثم شرع بعد ذلك بتفسير سورة الفاتحة مبتدئاً بالبسملة.

ثانيًا: مقدمة النكت والعيون، لأبي الحسن الماوردي:

استهل أبو الحسن رحمه الله تفسيره بخطبة مقتضبة، ثم ذكر أن معاني القرآن منها ما هو ظاهر خفي يدرك بالتلاوة، ومنها ما هو غامض وهو على نوعين: ما جاء توضيحه بنقل، وما كان باجتهاد.

وقد بيّن أن تفسيره سيجعله في بيان الغامض.

وهذا يوضح للقارئ أن كتابه ليس تفسيراً لكل كلمة من كلمات الآيات

القرآنية، وإنما يخص الغامض منها.

ثم ذكر بعد هذا منهج كتابة تفسيره باختصار.

وبعد ذلك نبّه على أنه سيقدم بين يدي تفسيره فصولاً، فذكر مضامينها باختصار، **وهي كالآتي:**

١. الفصل الأول: أسماء القرآن، فذكر الأسماء واشتقاقها، كما بين أيضًا اشتقاق التوراة والإنجيل والزبور.
٢. الفصل الثاني: أقسام سور القرآن.
٣. الفصل الثالث: في اشتقاق السورة والآية.
٤. الفصل الرابع: في نزول القرآن على سبعة أحرف.
٥. الفصل الخامس: في وجوه إعجازه.
٦. الفصل السادس: في حاجة معاني القرآن إلى التأمل، والرد على من امتنع أن يستنبط معاني القرآن باجتهاده، عند وضوح شواهده.
٧. الفصل السابع: في أقسام التفسير ووجوهه. وفصّل في هذا النوع تفصيلاً رائعًا.
٨. الفصل الثامن: في الاستعاذة.

ملحوظات على مقدمة الماوردي:

١. اتسمت المقدمة بالقصر، وقلة الكلام في خطبتها، وفصولها، ومحتويات تلك الفصول.

٢. الإكثار من ذكر الأقوال والتأويلات والأوجه والأنواع للمسائل التي يذكرها، لكن ذلك باختصار، وقليلاً ما يرجح. وهذا يشير إلى ما فعله في تفسيره؛ فإنه حينما يأتي إلى آية أو جملة منها أو كلمة للمفسرين فيها أقوال ووجوه يذكر ذلك.

٣. لم يتحدث عن نفسه، ولا عن مدح تفسيره، كما فعل بعض المفسرين الذين جاءوا بعده.

ثالثًا: مقدمة الكشاف، لأبي القاسم الزمخشري:

انتقل أبو القاسم رحمه الله بعد خطبة كتابه المسجوعة إلى الحديث عن منزلة علم التفسير وتفاوت الناس فيه، ثم تكلم عن أهمية علمي المعاني والبيان في تفسير القرآن، وذكر مؤهلات المفسر إلى جانب العلمين السابقين.

ثم تكلم عن إتيان أصحابه وتشفعهم إليه أن يؤلف لهم هذا التفسير، مع بيانه حاجة الناس إلى تفسيره المعتمد على علمي المعاني والبيان.

ثم ذكر ارتحاله إلى البيت الحرام وشوق الأمير أبي الحسن علي بن حمزة إلى هذا التفسير.

ثم ذكر بعد ذلك أنه ألف هذا التفسير في مكة في مدة كمدة خلافة أبي بكر، وكان يقدّر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة.

وقد بيّن أن حصول ذلك في هذه المدة اليسيرة ما هو إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت عليه من بركات هذا الحرم المعظم.

ملحوظات على مقدمة الزمخشري:

١. قصر المقدمة جداً؛ إذا لم تتجاوز الصفحات الأربع في بعض الطبعات؛ لكونه لم يتناول شيئًا من مباحث علوم القرآن في مقدمته كبعض المفسرين الآخرين.

٢. اعتنى بجزالة ألفاظ مقدمته، وسلوك سبيل السجع فيها، واختيار بعض وحشي الكلام.

٣. أشار إلى مذهبه العقدي الاعتزالي من طرف خفي؛ حيث قال عن القرآن: " أنشأه كتابًا ساطعاً تبيانه، قاطعاً برهانه"(١). والإنشاء من معانيه: الخلق. قال الجوهري: " أنشأه الله: خلقه، والاسم النشأة"(٢).

ثم صرّح- بشجاعته المعهودة في الانتماء إلى مذهب الاعتزال وأهله(٣)- فقال: "ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية..."(٤).

---

(١) الكشاف (المقدمة/ ١).

(٢) الصحاح للجوهري (٢/ ٨٨).

(٣) قال ابن خلكان: " وكان الزمخشري المذكور معتزلي الاعتقاد متظاهراً به، حتى نقل عنه أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له: أبو القاسم المعتزلي بالباب. وأول ما صنف كتاب " الكشاف " كتب استفتاح الخطبة " الحمد لله الذي خلق القرآن " فيقال: إنه قيل له: متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحد فيه، فغيره بقوله " الحمد لله الذي جعل القرآن " وجعل عندهم بمعنى خلق، والبحث في ذلك يطول. ورأيت في كثير من النسخ: " الحمد لله الذي أنزل القرآن " وهذا إصلاح الناس لا إصلاح المصنف". وفيات الأعيان (٥/ ١٧٠).

(٤) الكشاف (المقدمة/ ٣).

رابعًا: مقدمة المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد ابن عطية الأندلسي:

تناول ابن عطية رحمه الله بعد خطبة تفسيره اختياره علم التفسير على سائر العلوم، وبين أسباب ذلك، ثم ذكر منهجه في تفسيره.

ثم قال: "ولنقدم بين يدي القول في التفسير أشياء قد قدم أكثرها المفسرون، وأشياء ينبغي أن تكون راسخة في حفظ الناظر في هذا العلم مجتمعة لذهنه". ثم ذكر تلك الأشياء تحت عنوان: باب في...،

وهي كالآتي:

١. باب ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن الصحابة، وعن نبهاء العلماء، في فضل القرآن المجيد وصورة الاعتصام به.
٢. باب في فضل تفسير القرآن والكلام على لغته والنظر في إعرابه ودقائق معانيه.
٣. باب ما قيل في الكلام في تفسير القرآن، والجرأة عليه، ومراتب المفسرين.
٤. باب معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه".
٥. باب ذكر جمع القرآن وشكله ونقطه وتحزيبه وتعشيره.
٦. باب في ذكر الألفاظ التي في كتاب الله، وللغات العجم بها تعلق.
٧. نبذة مما قال العلماء في إعجاز القرآن.
٨. باب في الألفاظ التي يقتضي الإيجاز استعمالها في تفسير كتاب الله تعالى.

٩. باب في تفسير أسماء القرآن وذكر السورة والآية.

١٠. باب القول في الاستعاذة.

وأما البسملة فقد تكلم عنها ضمن تفسير سورة الفاتحة.

ملحوظات على مقدمة ابن عطية:

١. مقدمة متوسطة بين الطول والقصر.

٢. لم تكن هناك عناية بذكر من أخرج الأحاديث ولا الحكم عليها؛ فلذلك ذكر أحاديث كثيرة في مقدمته غير منسوبة إلى مخرجيها، كما أورد أحاديث ضعيفة، إلى جانب الأحاديث الصحيحة.

خامسًا: مقدمة زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج ابن الجوزي:

ذكر ابن الجوزي رحمه الله أن كتابه مختصر، وأنه وسط بين التفسير الكبير والتفسير الصغير مما كتبه المفسرون قبله، ثم ذكر فصولاً مختصرة في علوم القرآن.

وهي كالآتي:

١. فصل في فضل علم التفسير.

٢. فصل في الفرق بين التفسير والتأويل.

٣. فصل في مدة نزول القرآن.

٤. فصل في الخلاف في أول ما نزل من القرآن.

٥. فصل في الخلاف في آخر ما نزل.

٦. (وذكر منهجه في فصل).

٧. فصل في الاستعاذة، وذكره في سطرين فقط.

٨. وفصل في البسملة، أطال فيه قليلاً.

ملحوظات على مقدمة ابن الجوزي:

١. مقدمة قصيرة.

٢. الكلام في مباحثها مختصر جداً.

سادسًا: مقدمة الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، لأبي عبد الله القرطبي:

تكلم القرطبي رحمه الله في مقدمته عن فضل القرآن، وعن عظم المهمة على أهل القرآن، ثم بين أن الله جعل بيان القرآن إلى رسوله. ثم تكلم عن نيته وعمله في هذا التفسير، وعن منهجه فيه.

ثم ذكر مباحث من علوم القرآن تحت عنوان باب...، **وهي كالآتي:**

١. باب ذكر جمل من فضائل القرآن، والترغيب فيه، وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعامل به. فذكر مجموعة من الروايات منها الصحيح ومنها الحسن ومنها الضعيف.

٢. باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى، وما يكره منها وما يحرم، واختلاف الناس في ذلك.

ومما ذكره: أقوال العلماء في معنى قوله عليه الصلاة والسلام: (ليس منا من لم يتغن بالقرآن).

٣. باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره.

٤. باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه. وقد ذكر فيه وصايا نافعة في هذا الشأن.

٥. باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه، وثواب من قرأ القرآن معربًا.

٦. باب ما جاء في فضل تفسير القرآن وأهله.

٧. باب ما جاء في حامل القرآن ومن هو، وفي من عاداه.

٨. باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته. وذكر فيه مجموعة كثيرة من الآداب المتعلقة بقراءة القرآن، وبالمصاحف، وبعضها آداب مهمة.

٩. باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي، والجرأة على ذلك، ومراتب المفسرين. وذكر فيه المفسرين من الصحابة والتابعين، كما ذكر من ألف في التفسير من السابقين، نقلاً عن ابن عطية.

١٠. باب تبيين الكتاب بالسنة، وما جاء في ذلك.

١١. باب كيفية التعلم والفقه لكتاب الله تعالى، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وما جاء أنه سهل على من تقدم العمل به دون حفظه.

١٢. باب معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه).

١٣. باب ذكر جمع القرآن، وسبب كتب عثمان المصاحف وإحراقه ما سواها، وذكر من حفظ القرآن من الصحابة رضي الله عنهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم. وذكر فصلين رد فيهما على بعض الفرق الضالة القائلين في القرآن بغير الحق.

١٤. باب ما جاء في ترتيب سور القرآن وآياته، وشكله ونقطه، وتحزيبه وتعشيره، وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه.

١٥. باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف. ومما تكلم فيه كلامًا حسنًا: كلامه عن الكلمة.

١٦. باب هل ورد في القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا؟

١٧. باب في إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها. ومما ذكر فيه: شروط المعجزة وأنواعها، وذكر عشرة وجوه من وجوه إعجاز القرآن، وذكر الرد على القول بالصَّرْفة.

١٨. باب التنبيه على أحاديث وضعت في فضل سور القرآن وغيره. ومما ذكر تحته: أصناف الواضعين للحديث.

١٩. باب ما جاء من الحجة في الرد على من طعن في القرآن وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان. ومما ذكر فيه: خبر رجل ادعى تحريف القرآن وذكر أمثلة لما يقول، والرد عليه.

٢٠. القول في الاستعاذة. و ذكر فيها اثنتي عشرة مسألة.

٢١. ثم ذكر البسملة، وذكر فيها ثمانيًا وعشرين مسألة.

ملحوظات على مقدمة القرطبي:

١. مقدمة طويلة جداً، أطال فيها النفس عن مباحث قرآنية كثيرة.

٢. عنايته بذكر من خرج الأحاديث.

٣. نقل أشياء عديدة عن ابن عطية، وعن أبي بكر الأنباري، وأبي عمرو الداني.

سابعًا: مقدمة البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي:

ذكر أبو حيان رحمه الله مكانة علم التفسير، كما وضح عزمه وإقدامه على كتابة هذا التفسير، ومما ذكره: سِنَّهُ عند تأليف هذا الكتاب.

ثم ما أودعه في تفسيره من العلوم، وعنايته بعلوم العربية، والإشارة إلى فضل نفسه في استخراج فكره لبعض اللطائف التي ذكرها هذا التفسير. ثم ذكر أموراً أخرى، **وهي كالآتي:**

١. فضل علماء المغرب الأندلسي في العلوم، ثم لوى عنانه إلى الثناء العاطر على كتاب سيبويه، وحث من رام التفسير أن يعتكف عليه.

٢. تتلمذه على العلماء، ومنزلته في ذلك، وفضله على غيره فيه، بكلام مسجوع طويل، وذكر في ذلك انتقاله في البلدان حتى استقر رحله في مصر، التي ألف بها تآليفه، ومنها هذا الكتاب.

٣. جعله القرآن سميره، وذكر أبياتًا في ذلك.

٤. منهجه التفصيلي في تفسير كل آية، وبُعده عن ذكر تفاسير وأقاويل بعض الفرق

المنحرفة، وإعراضه عما شحنه بعض المفسرين في تفاسيرهم من الإسرائيليات، وتفاصيلِ بعض العلوم التي محلها كتب تلك العلوم لا كتب التفسير.

٥. رده على معاصر له زعم أن علم التفسير مضطر إلى النقل في فهم معاني تراكيبه بالإسناد إلى مجاهد وطاوس وعكرمة وأضرابهم.

٦. بيان ما يحتاج إليه علم التفسير من العلوم.

٧. ثم ذكر بكلام طويل مسجوع أنه لا يرتقي ذروة التفسير إلا من كان متبحراً في علم اللسان.

٨. الاختلاف فيما به إعجاز القرآن، وأصناف الناس في إدراك ذلك، ورد على القائلين بالصرفة.

٩. نقل كلام الزمخشري في وصف المؤهل لتفسير القرآن ومتعاطيه.

١٠. الثناء الكثير على الزمخشري وابن عطية في تمكنهما من هذا العلم، وذكر قول أبي نصر ابن خاقان في الثناء على ابن عطية.

١١. قوله: إنه سيجعل تفسيري الزمخشري وابن عطية محل انتقاده، وغرضه من ذلك تخليص دسيسهما وإبراز نفيسهما.

١٢. ذكر مولدي الزمخشري وابن عطية ووفاتيهما، وذكر أنهما متقاربا الولادة والوفاة.

١٣. المقارنة بين تفسيري ابن عطية والزمخشري.

١٤. ذكرُ سنده في تلقي تفسيري الزمخشري وابن عطية إليهما.

١٥. ذكرَ أن أكثر نقوله في تفسيره عن كتاب "التحرير والتحبير" لابن النقيب، مع بيانه ما فيه من العيوب.

١٦. ذكر مشايخه في القرآن.

١٧. ذكرُ بعض مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ وَفَضَائِلِهِ، وذكر أحاديث بعضها ضعيف.

١٨. وذكرَ آثاراً في فضل علم التفسير.

١٩. ذكرُ المفسرين من الصحابة والتابعين.

٢٠. وصف تآليف المتقدمين في التفسير.

٢١. ثم ذكر تعريف علم التفسير لغة واصطلاحًا، مع محترزات التعريف.

ملحوظات على مقدمة أبي حيان:

١. مقدمة متوسطة، لكنها مشحونة بأمور كثيرة.

٢. عرف علم التفسير لغة واصطلاحًا، ولم يعرفه متقدموه من المفسرين ممن تناولتهم هذه الدراسة، وقد صار تعريفه هذا من تعريفات التفسير التي اشتهرت.

٣. لم يتناول مباحث علوم القرآن التي تناولها غيره من المتقدمين، فما ذكر منها إلا نزراً يسيراً.

ثامنًا: مقدمة تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء ابن كثير الدمشقي:

ذكر ابن كثير رحمه الله وجوب الكشف عن معاني كلام الله، ثم ذكر أحسن الطرق لتفسير كتاب الله، ثم ذكر أقسام أخبار بني إسرائيل، وحكم كل قسم. ثم تكلم عن حكم التفسير بالرأي.

وبعد ذلك تحدث عن أمور، **وهي كالآتي:**

١. فضائل القرآن، فذكر بعض الأحاديث في فضل القرآن، وتكلم عن أسانيد بعضها، وحكم عليها، وذكر بعض الفوائد من تلك الأحاديث.
٢. جمع القرآن وحفاظه في عهد رسول الله، وجمعه في عهد الخليفتين: أبي بكر وعثمان.
٣. تاريخ الكتابة عند العرب ومواطنها.
٤. نزول القرآن على سبعة أحرف، ومعنى ذلك، وبعض الأقوال في اختلاف العلماء بالمراد بها.
٥. تأليف القرآن أي: ترتيب سوره وآياته.
٦. نقط المصحف وشكله.
٧. القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.
٨. فضل القرآن على سائر الكلام.
٩. التغني بالقرآن ومعناه، وتكلم عن تحسين الصوت المطلوب في قراءة القرآن.
١٠. اغتباط صاحب القرآن.
١١. فضل تعلم القرآن وتعليمه.
١٢. الخلاف في قراءة القرآن عن ظهر قلب أو من المصحف.
١٣. استذكار القرآن وتعاهده.
١٤. تعليم الصبيان القرآن.
١٥. الكلام عن قول القارئ: نسيت آية كذا وكذا، وقول بعضهم سورة كذا أو السورة التي يذكر فيها كيت وكيت.

١٦. الترتيل في القراءة، ومد القراءة، والمدة في ختم القرآن، والبكاء عند القراءة.

١٧. أحاديث شتى تتعلق بتلاوة القرآن، وفضائله وفضل أهله.

١٨. عدد آيات القرآن، وعدد كلماته، وحروفه.

١٩. ثم ختم ببيان اشتقاق السورة والآية.

ملحوظات على مقدمة ابن كثير:

١. استفاد في مقدمته أشياء كثيرة مما ذكره ابن جرير في مقدمته، وكذلك ما ذكره القرطبي وابن تيمية، ونقل روايات كثيرة عن البخاري في صحيحه في كتاب فضائل القرآن، وعن أبي عبيد في فضائل القرآن.

٢. اعتنى كثيراً بالحكم على الروايات ورواتها.

٣. كان يستنبط فوائد من بعض الروايات التي يوردها.

٤. مقدمة طويلة، وفيها تواضع وعدم اعتداد بالنفس.

٥. ولما كان كتابه من كتب تفسير القرآن بالقرآن فقد كان من براعته في استهلاله: أنه قال: الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد... وافتتح خلقه بالحمد... واختتمه بالحمد... فذكر الآيات الدالة على ذلك. وهكذا في بقية مقاطع خطبة الاستفتاح فلا يذكر جملة إلا استدل لها من القرآن.

٦. الترجيح والتصحيح في الأقوال والمسائل.

٧. مقدمته واضحة العبارات، بيِّنة الكلمات، ليس فيها غموض في جملها، ولا تدعو قارئها إلى العودة إلى شروح أو معاجم لغة لبيان ألفاظها.

تاسعًا: مقدمة روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الثناء الآلوسي:

ذكر أبو الثناء رحمه الله شرف العلوم الدينية وفضلها، وذكر جِده واجتهاده في تحصيل كشف معاني القرآن، وأثنى على نفسه -وأطال- في معرفته بهذا العلم، وكشفِ إشكالاته، وتحصيل دقائقه، وتلقيه عن العلماء المتقنين.

ثم ذكر رؤيا دفعته إلى كتابة تفسيره، وتاريخ شروعه فيه، وسِنه في ذلك الوقت، وخليفة عصره الذي كتب الكتاب في عهده، وأثنى عليه ثناء كبيراً، ثم ذكر اسم تفسيره ومن سماه بذلك.

ثم قدم له بسبع فوائد، وقد قال في مدحها: " يليق أن تكتب بسواد العيون على صفحات الخدود"[1]، **وهي كالآتي:**

١. الفائدة الأولى: في معنى التفسير والتأويل، وبيان الحاجة إلى هذا العلم وشرفه. وقد أخذ تعريف التفسير عن أبي حيان، دون أن يشير إليه.
٢. الفائدة الثانية: فيما يحتاجه التفسير، ومعنى التفسير بالرأي، وحكم كلام السادة الصوفية في القرآن.
٣. الفائدة الثالثة: في أسماء القرآن واشتقاقها.
٤. الفائدة الرابعة: في تحقيق معنى أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق. وفصل -على مذهب الأشاعرة- في هذه الفائدة تفصيلاً كبيراً، حتى قال عن نفسه فيها: "لكني بحول من عز حوله، وفضل من غمرنا فضله؛ أوردها في هذا الكتاب

---

(١) روح المعاني (١/ ٥).

ليتذكر أولو الألباب بأسلوب عجيب، وتحقيق غريب، لا أظنك شنفت سمعك بمثل لآليه، ولا نورت بصرك بشبه بدر لياليه..."[١].

لكنه ذكر من ضمن ما ذكر كلامًا لا يوافق عليه، وتعرض لبعض الأئمة بالنقد الجارح!.

٥. الفائدة الخامسة: في بيان المراد بالأحرف السبعة.

٦. الفائدة السادسة: في جمع القرآن وترتيبه.

٧. الفائدة السابعة: في بيان وجه إعجاز القرآن.

ومما ذكر فيه: الرد على المعتزلة فيما رأوه من وجوه إعجاز القرآن، والجواب عن قول عثمان: " إن في القرآن لحنًا.." إلخ، والجواب عن قول عائشة: ".. فقالت: يا ابن أخي، هذا عمل الكتاب أخطأوا في الكتاب".

ملحوظات على مقدمة الآلوسي:

١. مقدمة متوسطة، كثيرة السجع والمدح للنفس.

٢. هناك تشابه في بعض الأمور بين مقدمته ومقدمة أبي حيان.

٣. استعمل في استهلاله بعض العبارات الصوفية.

عاشراً: مقدمة التحرير والتنوير، لابن عاشور:

ذكر- في كلام طويل- رغبته في كتابة تفسير للقرآن، ولكنه تردد، حتى أسندت إليه خُطَّة الْفُتْيَا، وهناك صار العزم إلى عمل في الرغبة السابقة. وأشار إلى ما سيأتي به

(١) روح المعاني (١/ ١١).

من الشيء الجديد في تفسيره.

وذكر أحوال الناس المتأخرين حول كلام الأقدمين. ثم بين أهم كتب التفسير لديه، وكانت مرجعه في تفسيره، ولكنه أخبر أنه لا يشير إليها؛ طلبًا للاختصار.

ذكر منهجه واهتماماته العلمية في تفسيره الآيات، فذكر اهتمامه بنكت البلاغة العربية، وإعجاز القرآن، وتناسب الآيات، وغيرها.

ثم ذكر عشر مقدمات تكون عونًا للباحث في التفسير:

١. **المقدمة الأولى:** في التفسير والتأويل، وكون التفسير علمًا. ومما ذُكر فيها: وجوه ستة(منطقية) لكون التفسير علمًا، وذكر أشهر المفسرين من الصحابة والتابعين، والمصنفين فيه.
٢. **المقدمة الثانية:** فِي اسْتِمْدَادِ عِلْمِ التَّفْسِيرِ، وذكر العلوم التي يستمد منها هذا العلم.
٣. **المقدمة الثالثة:** فِي صِحَّةِ التَّفْسِيرِ بِغَيْرِ الْمَأْثُورِ وَمَعْنَى التَّفْسِيرِ بِالرَّأْيِ وَنَحْوِهِ. ومما تكلم فيها: الجواب عن الآثار والأقوال في النهي والإحجام عن التفسير بالرأي، فأجاب عن ذلك من عدة وجوه، وتكلم في هذه المقدمة أيضًا عن المقبول والمردود من التفسير الإشاري-حسب رأيه-.
٤. **المقدمة الرابعة:** فيما يحق أن يكون غرض المفسر. وقدم بين يدي ذلك ذكر المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبيانها، واستقرأ أنها ثمانية، فذكرها.
٥. **المقدمة الخامسة:** في أسباب النزول. ومما ذكر فيها: رأيه فيما يذكره المفسرون من

أسباب النزول، وذكر أقسامًا خمسة يندرج تحتها ما صح من أسباب النزول.

٦. **المقدمة السادسة:** في القراءات. ومما ذكر فيها: ما يتعلق بالأحرف السبعة.

٧. **المقدمة السابعة:** قصص القرآن. وذكر تحتها عشر فوائد، وذكر فوائد لتكرار القصة في القرآن.

٨. **المقدمة الثامنة:** في اسم القرآن وآياته وسوره وترتيبها وأسمائها.

٩. **المقدمة التاسعة:** في أن المعاني التي تتحملها جمل القرآن تعتبر مرادة بها.

١٠. **المقدمة العاشرة:** في إعجاز القرآن.

ملحوظات على مقدمة ابن عاشور:

١. مقدمة طويلة، مشحونة بكثير من الفوائد المتنوعة.

٢. هناك حديث عن نفسه، وعما تميز به تفسيره عن غيره.

٣. العناية بعلم المنطق في تضاعيف المقدمة ظاهرة.

٤. استفاد كثيراً ممن تقدمه، وقرأ كتبًا وعلومًا متنوعة، فأفاد منها في المقدمة.

٥. ذكر مباحث لم يتناولها من قبله في مقدماتهم؛ كالتفصيل في قصص القرآن.

٦. أطال النفس في الحديث عن إعجاز القرآن.

المطلب الثاني
وصف القرآن

من نظر في بعض مقدمات التفاسير وجد من مؤلفيها ذكراً للقرآن الكريم بأوصاف حسنة، ونعته بعبارات جميلة، يمكن الإفادة منها لتكون تلك المقاطع الوصفية جزءاً من خطبة أو كلمة أو خاطرة أو مقالة، تتحدث عن هذا الكتاب العظيم.

فمن ذلك:

أولاً: وصف أبي جعفر الطبري:

قال رحمه الله: "فإنّ من جسيم ما خصّ الله به أمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الفضيلة، وشرَّفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة، وحباهم به من الكرامة السنية؛ حفظَه ما حفظ عليهم -جلّ ذكره وتقدست أسماؤه- من وحيه وتنزيله، الذي جعله على حقيقة نبوة نبيهم صلى الله عليه وسلم دلالة، وعلى ما خصه به من الكرامة علامةً واضحة، وحجةً بالغة، أبانه به من كل كاذب ومفترٍ، وفصَل به بينهم وبين كل جاحد ومُلحِد، وفرَق به بينهم وبين كل كافر ومشرك؛ الذي لو اجتمع جميعُ من بين أقطارها، من جِنِّها وإنسها وصغيرها وكبيرها، على أن يأتوا بسورة من مثله لم يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا. فجعله لهم في دُجَى الظُّلَم نورًا ساطعا، وفي سُدَف الشُّبَه شهابًا لامعا، وفي مضَلة المسالك دليلاً هاديا، وإلى سبل النجاة والحق حاديا، ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[المائدة: ١٦]. حرسه بعين منه لا تنام، وحاطه برُكن منه لا

يضام، لاَ تَهِي على الأيام دعائمه، ولا تبيد على طول الأزمان معالمه، ولا يجوز عن قصد المحجَّة تابعه، ولا يضل عن سُبُل الهدى مُصَاحبه.

من اتبعه فاز وهُدِي، ومن حاد عنه ضلَّ وغَوَى، فهو موئلهم الذي إليه عند الاختلاف يَئِلون، ومعقلهم الذي إليه في النوازل يعقلون، وحصنهم الذي به من وساوس الشيطان يتحصنون، وحكمة ربهم التي إليها يحتكمون، وفصْل قضائه بينهم الذي إليه ينتهون، وعن الرضى به يصدرون، وحبله الذي بالتمسك به من الهلكة يعتصمون.

اللّهم فوفقنا لإصابة صواب القول في مُحْكَمه ومُتَشابهه، وحلاله وحرامه، وعامِّه وخاصِّه، ومجمَله ومفسَّره، وناسخه ومنسوخه، وظاهره وباطنه، وتأويل آية وتفسير مُشْكِله. وألهمنا التمسك به والاعتصام بمحكمه، والثبات على التسليم لمتشابهه، وأوزعنا الشكر على ما أنعمتَ به علينا من حفظه والعلم بحدوده. إنك سميع الدعاء قريب الإجابة"[1].

ثانيًا: وصف أبي القاسم الزمخشري:

قال رحمه الله [أنزله]: " كتابًا ساطعاً تبيانه، قاطعاً برهانه، وحيا ناطقاً ببينات وحجج، قرآنا عربياً غير ذي عوج، مفتاحاً للمنافع الدينية والدنيوية، مصداقا لما بين يديه من الكتب السماوية، معجزاً باقياً دون كل معجز على وجه كل زمان، دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان، أفحم به من طولب بمعارضته من

(١) تفسير الطبري (١/ ٥-٦).

العرب العرباء، وأبكم به من تحدّى به من مصاقع الخطباء، فلم يتصدّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم. على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء، وأوفر عدداً من رمال الدهناء ولم ينبِض منهم عرق العصبية[١] مع اشتهارهم بالإفراط في المضادّة والمضارّة، وإلقائهم الشراشر[٢] على المعازة والمعارّة[٣]، ولقائهم دون المناضلة عن أحسابهم الخطط[٤]، وركوبهم في كل ما يرومونه الشطط، إن أتاهم أحد بمفخرة أتوه بمفاخر، وإن رماهم بمأثرة رموه بمآثر، وقد جرّد لهم الحجة أوّلاً، والسيف آخراً، فلم يعارضوا إلا السيف وحده، على أنّ السيف القاضب مخراق لاعب[٥]، إن لم تمض الحجة حدّه فما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أنّ البحر قد زخر فطمّ[٦] على الكواكب[٧]، وأنّ الشمس قد أشرقت فطمست نور الكواكب"[٨].

---

(١) (ينبض): يتحرك. يقال: نبض العِرْقُ يَنْبِضُ نَبْضاً ونَبَضاناً: تَحَرَّكَ. القاموس المحيط (ص: ٨٤٤).

(٢) (الشَّرَاشِرُ) : الأَثْقَالُ، الواحد شُرْشُرَةٌ، يقال : أَلْقَى عليه شَرَاشِرَهُ، أَي: أَثْقَالَه . تاج العروس من جواهر القاموس (١٢/ ١٥٩).

(٣) (المعازة)، وهي المغالبة، و"المعارة" بالراء المهملة: المعايبة، من المعرة وهي الإثم، وهو يعر قومه، أي: يدخل عليهم مكروهاً، جانس بين "المعازة" و"المعارة" وبين "المضادة" و"المضارة". فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (١/ ٦٣٦).

(٤) (الخطط) وهي جمع خطة، وهي الأمر العظيم أو الشدة، وهو مفعول: "لقائهم". المعنى: لم يتحرك عرق عصبيتهم مع لقائهم الشر والشدائد عند المدافعة عن أحسابهم. المصدر السابق(١/ ٦٣٨)

(٥) المخراق: المنديل يلف ليضرب به. المصدر السابق (١/ ٦٣٩).

(٦) (طم)، أي: غلب. المصدر السابق (١/ ٦٤٠).

(٧) (الكواكب)، وهو جمع كوكب، الجوهري: كوكب الشيء: معظمه. استعار البحر للقرآن لغزارة فوائده وكثرة فرائده، والشمس لظهور دلائله وسطوع براهينه، ولبلاغتهم الأنهار والنجوم.المصدر السابق (١/ ٦٤٠).

(٨) الكشاف (المقدمة/ ١).

ثالثًا: وصف أبي محمد ابن عطية:

قال رحمه الله: " أنزل إلينا القرآن العزيز، وعد فيه وبشر، وأوعد وحذر، ونهى وأمر، وأكمل فيه الدين، وجعله الوسيلة الناجحة والحبل المتين، ويسره للذكر، وخلده غابر الدهر، عصمة للمعتصمين، ونوراً صادعًا في مشكلات المختصمين، وحجة قائمة على العالم، ودعوة شاملة لفرق بني آدم، كلامه الذي أعجز الفصحاء، وأخرس البلغاء، وشرف العلماء"(١).

رابعًا: وصف أبي عبد الله القرطبي:

قال رحمه الله: " أرسله بكتابه المبين، الفارق بين الشك واليقين، الذي أعجزت الفصحاء معارضتُه، وأعيت الألبّاءَ مناقضتُه، وأخرست البلغاءَ مشاكلته، فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. جعل أمثاله عبراً لمن تدبرها، وأوامره هدى لمن استبصرها، وشرح فيه واجبات الأحكام، وفرق فيه بين الحلال والحرام، وكرر فيه المواعظ والقصص للأفهام، وضرب فيه الأمثال، وقص فيه غيب الأخبار، فقال تعالى:﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾[الأنعام:٣٨]، وخاطب به أولياءه ففهموا، وبين لهم فيه مراده فعلموا "(٢).

خامسًا: وصف أبي حيان الأندلسي:

قال رحمه الله: "... والكتاب المستبين، الذي هو أعظم المعجزات، وأكبر

---

(١) تفسير ابن عطية (١/ ٣٣).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ١).

الآيات البينات، السائرة في الآفاق، الباقي بقاء الأطواق في الأعناق، الجديد على تقادم الأعصار، اللذيذ على توالي التكرار، الباسق في الإعجاز إلى الذروة العليا، الجامع لمصالح الآخرة والدنيا، الجالي بأنواره ظُلَم الإلحاد، الحالي بجواهر معانيه طُلى الأجياد[١]"[٢].

وقال رحمه الله: "جعلت كتاب الله والتدبير لمعانيه أنيسي؛ إذ هو أفضل مؤانس، وسميري إذا أخلو لكتب ظلم الحنادس[٣]:

نِعْمَ السَّمِيرُ كِتَابُ اللَّهِ إِنَّ لَهُ ... حَلَاوَةً هِيَ أَحْلَى مِنْ جَنَى الضَّرَبِ[٤]
بِهِ فُنُونُ الْمَعَانِي قَدْ جُمِعْنَ فَمَا ... يُفْتَنُ مِنْ عَجَبٍ إِلَّا إِلَى عَجَبِ
أَمْرٌ وَنَهْيٌ وَأَمْثَالٌ وَمَوْعِظَةٌ ... وَحِكْمَةٌ أُودِعَتْ فِي أَفْصَحِ الْكُتُبِ
لَطَائِفٌ يَجْتَلِيهَا كُلُّ ذِي بَصَرٍ ... وَرَوْضَةٌ يَجْتَنِيهَا كُلُّ ذِي أَدَبِ "[٥].

سادسًا: وصف ابن عاشور التونسي:

قال رحمه الله: " فأنزل القرآن قانونًا عامًا معصوما، وأعجز بعجائبه فظهرت يومًا فيوما، وجعله مصدقًا لما بين يديه ومهيمنا، وما فرط فيه من شيء يعظ مسيئًا ويعد محسنا، حتى عرفه المنصفون من مؤمن وجاحد، وشهد له الراغب والمحتار

---

(١) الحالي: المزين بالحلي، والطلى جمع طلاة، والطلاة : العنق أو صفحته. الأجياد: جمع جيد، والجيد: العنق ومقدمه وموضع القلادة. المعجم الوسيط (١/ ١٩٥) (٢/ ٥٦٤) (١/ ١٥٠).

(٢) البحر المحيط (١/ ٩).

(٣) الحندس: جمع حندس. (الحندس) الظلمة والليل الشديد الظلمة. المعجم الوسيط (١/ ٢٠٢).

(٤) الضَّرْب: الْعَسَل الْأَبْيَض الغليظ. المعجم الوسيط (١/ ٥٣٧).

(٥) البحر المحيط (١/ ١٢).

والحاسد، فكان الحال بتصديقه أنطق من اللسان، وبرهان العقل فيه أبصر من شاهد العيان، وأبرز آياته في الآفاق، فتبين للمؤمنين أنه الحق، كما أنزله على أفضل رسول، فبشر بأن لهم قدم صدق، فبه أصبح الرسول الأمي سيد الحكماء المربين، وبه شرح صدره إذ قال: ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾[النمل:٧٩]، فلم يزل كتابه مُشعًّا نيرا، محفوظا من لدنه أن يترك فيكون مبدَّلاً ومغيَّرا "[١].

(١) التحرير والتنوير (١/ ٥).

المطلب الثالث
الحديث عن علم التفسير وأهله

تحدث هؤلاء المقدِّمون -رحمهم الله- عن علم التفسير مبينين فضله ومكانته وأهميته، ومَن هم أهلُه، إضافة إلى ما ذكروه من مباحث أخرى عن علم التفسير ضمن فوائدهم التي قدموها بين يدي تفاسيرهم.

وسأذكر في هذا المطلب ما قاله هؤلاء الأئمة في مقدماتهم عن هذا العلم الجليل من التنبيهات والوصف والفضل، والشروط التي تنبغي أن تكون فيمن تصدر له .

أولاً: الطبري:

تكلم أبو جعفر عن التفسير فذكر أنه أحق ما صرفت إلى علمه العناية، فقال: " اعلموا -عبادَ الله، رحمكم الله- أن أحقَّ ما صُرِفت إلى علمه العناية، وبُلِغت في معرفته الغاية، ما كان لله في العلم به رضًى، وللعالم به إلى سبيل الرشاد هدى، وأن أجمعَ ذلك لباغيه كتابُ الله الذي لا ريب فيه، وتنزيله الذي لا مِرْية فيه، الفائزُ بجزيل الذخر وسنيّ الأجر تاليه، الذي: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت:٤٢]"(١).

ثانيًا: الزمخشري:

تحدث أبو القاسم عن سمو علم التفسير، وأنه لا يبلغه إلا قلة من الناس

(١) تفسير الطبري (١/ ٦).

توفرت فيهم شروط يستأهلون بها أن يصيروا أهلاً للتفسير، **فقال:**

"إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح[١]، من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها؛ علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بزَّ أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرّية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوّة لحييه؛ لا يتصدّى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة اللَّه، وحرص على استيضاح معجزة رسول اللَّه، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعًا بين أمرين: تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زمانًا ورُجع إليه، وردّ ورُدّ عليه، فارسًا في علم الإعراب، مقدَّمًا في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقّادها، يقظان النفس درّاكاً للمحة وإن لطف شأنها، متنبهًا على الرمزة وإن خفى مكانها، لا كزّاً جاسيا[٢]، ولا غليظاً جافيا،

---

(١) القوارح: هي جمع القارحة. والقارح: هو الكامل السن من الخيل إذا بلغ خمس سنين. فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (١/ ٦٥٥).

(٢) يعني: يابسًا صُلبًا.

متصرفًا ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضًا غير ريض[١] بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلى مضايقه، ووقع في مداحضه ومزالقه"[٢].

ثالثًا: ابن عطية:

تحدث أبو محمد فذكر أن المرء لا يصل إلى الدرجات العليا في العلم حتى يأخذ من كل علم بطرف، ويجد ويجتهد في هذا المضمار، وقد بيّن ابن عطية أنه من أولئك الذين فعلوا ذلك.

فلما وصل إلى تلك الغاية عزم على أن يختار من العلوم علمًا يخصه بمزيد من الجهد والجد، فاختار لنفسه علم التفسير؛ لكونه أشرف العلوم، وأنفع ما يحتاج ضياءه في قبره. ثم تحدث بعد ذلك عن فضل علم التفسير وأهميته، ثم رجا الخير من وراء هذا العلم الذي اختاره.

يقول رحمه الله: " فإني لما رأيت العلوم فنونا، وحديث المعارف شجونا، وسلكت فإذا هي أودية، وفي كل للسلف مقامات حسان وأندية، رأيت أن الوجه لمن تشزن[٣] للتحصيل، وعزم على الوصول؛ أن يأخذ من كل علم طرفًا خيارا، ولن يذوق النوم مع ذلك إلا غرارا، ولن يرتقي هذا النجد، ويبلغ هذا المجد، حتى ينضي

(١) المرتاض: الذي تمت رياضته، والريض: الذي يستحق الرياضة، ولم يرض بعد. فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (١/ ٦٦٦).

(٢) الكشاف (المقدمة/ ٢-٣).

(٣) تشزن: نشط وداوم. المعجم الوسيط (١/ ٤٨١).

مطايا الاجتهاد، ويصل التأويب بالإسئاد[١]، ويطعم الصبر، ويكتحل بالسهاد، فجريت في هذا المضمار صدر العمر طلقا، وأدمنت حتى تفسخت أينًا[٢] وتصببت عرقا، إلى أن انتهج بفضل الله عملي، وحزت من ذلك ما قسم لي، ثم رأيت أن من الواجب على من احتبى، وتخير من العلوم واجتبى، أن يعتمد على علم من علوم الشرع، يستنفد فيه غاية الوسع، يجوب آفاقه، ويتتبع أعماقه، ويضبط أصوله، ويحكم فصوله، ويلخص ما هو منه، أو يؤول إليه، ويعنى بدفع الاعتراضات عليه، حتى يكون لأهل ذلك العلم كالحصن المشيد، والذخر العتيد، يستندون فيه إلى أقواله، ويحتذون على مثاله.

فلما أردت أن أختار لنفسي، وأنظر في علم أعد أنواره لظُلَم رمسي[٣]، سبرتها بالتنويع والتقسيم، وعلمتُ أن شرف العلم على قدر شرف المعلوم، فوجدت أمتنها حبالا، وأرسخها جبالا، وأجملها آثارا، وأسطعها أنوارا؛ علم كتاب الله جلت قدرته، وتقدست أسماؤه، الذي ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت:٤٢]، الذي استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض. هو العلم الذي جعل للشرع قواما، واستعمل سائر المعارف خدّاما، منه تأخذ مبادئها، وبه تعتبر نواشئها، فما وافقه منها نصع، وما خالفه رفض ودفع، فهو عنصرها النمير، وسراجها الوهاج، وقمرها المنير. وأيقنت أنه أعظم العلوم

---

(١) أنضى: أتعب. التأوي: الرجوع. والإسئاد: يقال: أسأد السّير أدأبه، وَأَكْثر مَا يسْتَعْمل ذَلِك فِي مشي اللَّيْل. المعجم الوسيط (٢/ ٩٢٩) (١/ ٣٢) (١/ ٤١٠).

(٢) تفسخت أينًا: يعني: تفرقت تعبًا وإعياء.

(٣) رمسي: قبري.

تقريبًا إلى الله تعالى، وتخليصًا للنيات، ونهيًا عن الباطل، وحضًا على الصالحات؛ إذ ليس من علوم الدنيا فيختل حامله من منازلها صيدا، ويمشي في التلطف لها رويدا.

ورجوت أن الله تعالى يحرم على النار فكراً عمرتْه أكثرَ عمره معانيه، ولسانًا مرن على آياته ومثانيه، ونفسًا ميزت براعة رصفه ومبانيه، وجالت سومها في ميادينه ومغانيه، فثنيت إليه عنان النظر، وأقطعته جانب الفِكر، وجعلته فائدة العمر، وما ونيت- علم الله- إلا عن ضرورة بحسب ما يلم في هذه الدار من شغوب، ويمس من لغوب، أو بحسب تعهد نصيب من سائر المعارف"[1].

رابعًا: ابن الجوزي:

أما ابن الجوزي فقد ذكر كلامًا مختصراً عن التفسير بيّن فيه شرف هذا العلم فقال: " وبعدُ، لما كان القرآن العزيز أشرف العلوم، كان الفهم لمعانيه أوفي الفهوم؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم"[2].

خامسًا: القرطبي:

تحدث القرطبي عن قضية مهمة يحتاج من يتصدى لتفسير كلام الله أن ينتبه لها، ألا وهي تفسير القرآن بمجرد فهم العربية دون إحكام ظاهر التفسير، ومعرفة النقل، فذكر عند هذه المسألة غلط من فعل ذلك. فقال رحمه الله: "فمن لم يحكم

(١) تفسير ابن عطية (١/ ٣٣٣٤).

(٢) زاد المسير في علم التفسير (١/ ١١).

ظاهر التفسير، وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي.

والنقل والسماع لا بد له منه في ظاهر التفسير أولاً ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط. والغرائب التي لا تفهم إلا بالسماع كثيرة، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾[الإسراء:٥٩]. معناه: آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها. فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة، ولا يدري بماذا ظلموا، وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم. فهذا من الحذف والإضمار. وأمثال هذا في القرآن كثير"(١).

سادسًا: أبو حيان:

أما أبو حيان فقد ذكر أن المعارف كثيرة، لكن أهمها علم كتاب الله الذي به سعادة الآخرة، وهو الغاية وغيره أدوات له، يقول رحمه الله: " وبعد، فإن المعارف جمة، وهي كلها مهمة، وأهمها ما به الحياة الأبدية، والسعادة السرمدية، وذلك علم كتاب الله، هو المقصود بالذات، وغيره من العلوم له كالأدوات، هو العروة الوثقى، والوزر الأقوى الأوقى، والحبل المتين، والصراط المبين"(٢).

ويتابع أبو حيان حديثه عن التفسير في موضع آخر من مقدمته، فينقد فعل

(١) تفسير القرطبي (١/ ٣٤).

(٢) البحر المحيط (١/ ٩-١٠).

بعض المفسرين الذين يشحنون تفاسيرهم بعلوم ليس محل تفصيلها التفسير، فيقول: " وكثيراً ما يشحن المفسرون تفاسيرهم من ذلك الإعراب بعلل النحو، ودلائل أصول الفقه، ودلائل أصول الدين، وكل هذا مقرر في تآليف هذه العلوم، وإنما يؤخذ ذلك مسلمًا في علم التفسير دون استدلال عليه.

وكذلك أيضًا ذكروا ما لا يصح من أسباب نزول، وأحاديث في الفضائل، وحكايات لا تناسب، وتواريخ إسرائيلية، ولا ينبغي ذكر هذا في علم التفسير.

ومن أحاط بمعرفة مدلول الكلمة وأحكامها قبل التركيب، وعلم كيفية تركيبها في تلك اللغة، وارتقى إلى تمييز حسن تركيبها وقبحه، فلن يحتاج في فهم ما تركب من تلك الألفاظ إلى مفهم ولا معلِّم، وإنما تفاوت الناس في إدراك هذا الذي ذكرناه؛ فلذلك اختلفت أفهامهم، وتباينت أقوالهم"[1].

ويستمر أبو حيان في الحديث عن التفسير في مكان آخر من مقدمته الرصينة، فيوضح أنه لا ينبغي لأحد أن يقدم على التفسير إلا من أحاط بجملة من العلوم، ومنها علم اللسان، وغير ذلك، حيث يقول: " لا ينبغي أن يقدم على تفسير كتاب الله إلا من أحاط بجملة غالبها من كل وجه منها، ومع ذلك فاعلم أنه لا يرتقي من علم التفسير ذروته، ولا يمتطي منه صهوته، إلا من كان متبحراً في علم اللسان، مترقيًا منه إلى رتبة الإحسان، قد جبل طبعه على إنشاء النثر والنظم دون اكتساب، وإبداء ما اخترعته فكرته السليمة في أبدع صورة وأجمل جلباب، واستفرغ في ذلك

(١) البحر المحيط (١/ ١٣).

زمانه النفيس، وهجر الأهل والولد والأنيس، ذلك الذي له في رياضه أصفى مرتع، وفي حياضه أصفى مكرع، يتنسم عَرْف أزاهر طال ما حجبتها الكَمام، ويترشف كؤوس رحيق له المسك ختام، ويستوضح أنوار بدور سترتها كثائف الغمام، ويستفتح أبواب مواهب الملك العلام، يدرك إعجاز القرآن بالوجدان لا بالتقليد، وينفتح له ما استغلق إذ بيده الإقليد.

وأما من اقتصر على غير هذا من العلوم، أو قصر في إنشاء المنثور والمنظوم، فإنه بمعزل عن فهم غوامض الكتاب، وعن إدراك لطائف ما تضمنه من العجب العجاب، وحظه من علم التفسير إنما هو نقل أسطار، وتكرار محفوظ على مر الأعصار "[1].

وينبه أيضًا على أن علم التفسير لا يعتمد على علم النحو فحسب، فيقول: " ولنبين أن علم التفسير ليس متوقفًا على علم النحو فقط، كما يظنه بعض الناس، بل أكثر أئمة العربية هم بمعزل عن التصرف في الفصاحة والتفنن في البلاغة؛ ولذلك قلت تصانيفهم في علم التفسير، وقل أن ترى نحويًا بارعًا في النظم والنثر، كما قل أن ترى بارعًا في الفصاحة يتوغل في علم النحو. وقد رأينا من ينسب للإمامة في علم النحو، وهو لا يحسن أن ينطق بأبيات من أشعار العرب، فضلاً عن أن يعرف مدلولها، أو يتكلم على ما انطوت عليه من علم البلاغة والبيان. فأنى لمثل هذا أن يتعاطى علم التفسير؟ "[2].

---

(١) البحر المحيط (١/ ١٧).

(٢) البحر المحيط (١/ ١٩).

سابعًا: ابن كثير:

أما ابن كثير فقد ذكر أن الناس مدعوون إلى فهم كتاب الله وتدبره، فكان الواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وطلبه من مظانه؛ حتى يحصل هذا المقصد، وبين أن علينا أن نسعى إلى تعلم كتاب الله وتعليمه وتفسيره؛ حتى نخرج من دائرة من ذمهم الله بإعراضهم عن كتابه.

يقول رحمه الله: "فهو -صلوات الله وسلامه عليه-رسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، مبلغًا لهم عن الله ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذي ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت:٤٢].

وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه ندبهم إلى تفهمه، فقال تعالى: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾[النساء:٨٢]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[ص:٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[محمد:٢٤].

فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[آل عمران:١٨٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[آل عمران:٧٧].

فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا -أيها المسلمون- أن ننتهي عما ذمهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به، من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهيمه، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[الحديد:١٦-١٧]. ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا ذلك، إنه جواد كريم "[1].

ثامنًا: الآلوسي:

أما الآلوسي فإنه لما ذكر بعض مبادئ الفنون، ذكر شرف علم التفسير وغايته ومكانته السامية بين العلوم، وشدة الحاجة إليه، فقال: " وأما بيان شرفه، فلأن شرف العلم بشرف موضوعه، وشرف معلومه، وغايته وشدة الاحتياج إليه، وهو حائز لجميعه؛ فإن موضوعه كلام الله تعالى، وماذا عسى أن يقال فيه، ومعلومه، مع أنه مراد الله تعالى الدال عليه، كلامه جامع للعقائد الحقة، والأحكام الشرعية وغيرها، وغايته الاعتصام بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، والوصول إلى سعادة

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٦).

الدارين، وشدة الاحتياج إليه ظاهرة مما تقدم، بل هو رئيس جميع العلوم الدينية؛ لكونها مأخوذة من الكتاب وهي تحتاج من حيث الثبوت أو من حيث الاعتداد إلى علم التفسير، وهذا لا ينافي كون الكلام رئيسها أيضًا؛ لأن علم التفسير لتوقفه على ثبوت كونه تعالى متكلمًا يحتاج إلى الكلام، والكلام لتوقف جميع مسائله من حيث الثبوت أو الاعتداد على الكتاب يتوقف على التفسير، فيكون كل منهما رئيسًا للآخر من وجه، على أن رياسة التفسير بناء على ذلك الشرف مما لا ينتطح فيه كبشان"(١).

تاسعًا: ابن عاشور:

أما ابن عاشور فقد أطال الكلام عن علم التفسير، فكان من ضمن ما ذكر أن التفسير أول العلوم الإسلامية، حيث قال: " والتفسير أول العلوم الإسلامية ظهوراً؛ إذ قد ظهر الخوض فيه في عصر النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ كان بعض أصحابه قد سأل عن بعض معاني القرآن كما سأله عمر رضي الله عنه عن الكلالة"(٢).

ونبه ابن عاشور كذلك على خطر علم التفسير، حتى لا يتجرأ عليه من ليس له بأهل، ولا مستند له في قوله فيه، فقال: " وإن واجب النصح في الدين والتنبيه إلى ما يغفل عنه المسلمون مما يحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم، قضى علي أن أنبه إلى خطر أمر تفسير الكتاب والقول فيه دون مستند من نقل صحيح عن أساطين المفسرين، أو إبداء تفسير أو تأويل من قائله إذا كان القائل توفرت فيه شروط الضلاعة في

(١) تفسير الألوسي (١/ ٦).
(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٤).

العلوم التي سبق ذكرها في المقدمة الثانية....فيجب على العاقل أن يعرف قدره، وأن لا يتعدى طوره، وأن يرد الأشياء إلى أربابها، كي لا يختلط الخاثر بالزباد، ولا يكون في حالك سواد، وإن سكوت العلماء على ذلك زيادة في الورطة، وإفحاش لأهل هذه الغلطة، فمن يركب متن عمياء، ويخبط خبط عشواء، فحق على أساطين العلم تقويم اعوجاجه، وتمييز حلوه من أجاجه؛ تحذيراً للمطالع، وتنزيلاً في البرج والطالع[1].

ثم تطرق ابن عاشور إلى ذكر طرائق المفسرين فيه، فذكر أن لهم ثلاثًا، فقال: "فطرائق المفسرين للقرآن ثلاث: إما الاقتصار على الظاهر من المعنى الأصلي للتركيب مع بيانه وإيضاحه وهذا هو الأصل.

وإما استنباط معان من وراء الظاهر تقتضيها دلالة اللفظ أو المقام ولا يجافيها الاستعمال ولا مقصد القرآن، وتلك هي مستتبعات التراكيب وهي من خصائص اللغة العربية المبحوث فيها في علم البلاغة؛ ككون التأكيد يدل على إنكار المخاطب أو تردده، وكفحوى الخطاب ودلالة الإشارة واحتمال المجاز مع الحقيقة.

وإما أن يجلب المسائل ويبسطها لمناسبة بينها وبين المعنى، أو لأن زيادة فهم المعنى متوقفة عليها، أو للتوفيق بين المعنى القرآني وبين بعض العلوم مما له تعلق بمقصد من مقاصد التشريع لزيادة تنبيه إليه، أو لرد مطاعن من يزعم أنه ينافيه لا على أنها مما هو مراد الله من تلك الآية، بل لقصد التوسع كما أشرنا إليه في المقدمة الثانية"[2].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٧).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٢).

المطلب الرابع
تسمية المفسر لتفسيره

اسم الكتاب وعنوانه هو ما يميزه عن غيره من الكتب، ونسبته بذلك الاسم إلى مؤلفه هو ما يقصره عليه دون غيره؛ إذ قد تتفق بعض أسماء الكتب، لكنها تفترق بنسبتها إلى مصنفيها، وعلومها التي تنتمي إليها.

وعلم التفسير من العلوم التي زخرت بأسماء عديدة لما أُلف فيها، ومن ذلك هذه التفاسير العشرة التي نحن بصدد الحديث عن مقدماتها.

وقد لاحظنا في هذه المقدمات العشر أن بعض أصحابها صرح باسم تفسيره في مقدمته، ومنهم من لم يصرح بذلك، ولكن ذكر اسم تفسيره في كتب أخرى له، ومنهم من لم يفعل هذا ولا ذاك، ولكن وجد اسم الكتاب على طرته، أو ذكر اسمَ كتابه بعض من ترجم له.

وبيان ما أجملنا في التفصيل الآتي:

١-جامع البيان في تأويل آي القرآن، لأبي جعفر الطبري:

هذا هو اسم تفسير الطبري، ولكنني لم أجد أبا جعفر رحمه الله قد صرح بهذا الاسم في مقدمة تفسيره في النسخة التي اطلعت عليها، غير أنني ألفيت تصريحه باسم تفسيره في بعض مصنفاته الأخرى.

ففي كتابه (تاريخ الأمم والرسل والملوك) قال-وهو يتكلم عن خلق آدم-:

"وقيل أقوال كثيرة في ذلك قد حكينا منها جملاً في كتابنا المسمى (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، فكرهنا إطالة الكتاب بذكر ذلك في هذا الموضع"(١).

وفي كتابه (تهذيب الآثار) ذكره بهذا الاسم في أربعة مواضع، منها قوله: " وهذا خبر قد بينا معناه، وذكرنا طرقه عن عمر وموافقيه ، في روايته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبينا اختلاف المختلفين في معناه ، والعلل المفسدة قول من خالف قولنا فيه ، باستقصاء ذلك في كتابنا المسمى (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، فكرهنا تطويل الكتاب بإعادته في هذا الموضع ، فمن أراد معرفة معانيه وما فيه فليلتمسه هناك يجده إن شاء الله مشروحا"(٢).

٢- النكت والعيون، لأبي الحسن الماوردي:

هذا هو اسم تفسير الماوردي المتداول، غير أنني لم أجده قد صرح بهذا الاسم في مقدمته، ولا في بعض كتبه الأخرى التي اطلعت عليها.

لكنني وجدت بعض مترجميه قد ذكروه بهذا الاسم، قال الصفدي في ترجمته: " ومن تصانيفه: تفسير القرآن سماه: النكت والعيون"(٣).

وقال ابن خلكان-الذي هو قبل الصفدي زمنًا-: " وله من التصانيف غير

---

(١) تاريخ الأمم والرسل والملوك(١/ ٦٢).

(٢) تهذيب الآثار مسند عمر (٢/ ٧٧٨)، وينظر: تهذيب الآثار مسند عمر (١/ ٢٦٣)، تهذيب الآثار مسند عمر (٢/ ٨٦٩)، تهذيب الآثار - الجزء المفقود (ص: ١٥٤).

(٣) الوافي بالوفيات (٢١/ ٢٩٨).

الحاوي تفسير القرآن الكريم والنكت والعيون "[١]. وذكر المحقق في الهامش بعد قوله: تفسير القرآن الكريم أنه في نسخة "ر" سماه النكت والعيون. كما ذكر الصفدي الذي استفاد من وفيات ابن خلكان.

٣-الكشاف، لأبي القاسم الزمخشري:

اشتهر تفسير الزمخشري بالكشاف، وهذا هو الاسم المختصر له، وقد ذكره أبو القاسم في بعض شعره حيث قال:

إنَّ التفاسير في الدّنيا بلا عددٍ ... وليس فيها لَعَمْري مثل كَشّافي

إن كنتَ تبغي الهدى فالزم قراءته ... فالجهل كالدّاء والكَشَّافُ كَالشَّافي[٢].

وأما الاسم الكامل له فقد صرح به الزمخشري في مقدمته فقال: "ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إليّ في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب واستطيروا شوقًا إلى مصنف يضم أطرافًا من ذلك حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملي عليهم (**الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**)..."[٣].

---

(١) وفيات الأعيان (٣/ ٢٨٢).

(٢) معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (٦/ ٢٦٨٩).

(٣) الكشاف(المقدمة/ ٣).

٤- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد ابن عطية الأندلسي:

لم أر ابن عطية صرح باسم تفسيره في مقدمة كتابه، قال بعض من كتب في منهج ابن عطية في تفسيره: " يرى الدكتور عبد الوهاب فائد مع جمع من المؤرخين أن ابن عطية لم يضع لتفسيره اسمًا خاصًا به، فقد ذكره ابن عميرة الضبي فقال: ألف ابن عطية تفسيراً ضخمًا أربى فيه على كل متقدم. وذكر أيضًا لسان الدين بن الخطيب - وهو من علماء القرن الثامن الهجري- أنه ألف كتابًا في التفسير يسمى بالوجيز، فأحسن فيه وأبدع- وطار- لحسن نيته- كل مطار. وأما من أطلق عليه اسمه المعروف الآن وهو (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) فهو: ملا كاتب حلبي المتوفى سنة: (١٠٦٧هـ) فهو الذي أطلق عليه، ومن ثم نستطيع أن نقول: إن هذا الاسم لم يكن من وضع ابن عطية"[١].

٥- زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج ابن الجوزي:

صرح ابن الجوزي بهذا الاسم لتفسيره فقال في مقدمته: " ووسمته بـ زاد المسير في علم التفسير[٢].

٦- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، لأبي عبد الله القرطبي:

اشتهر هذا التفسير بنسبته إلى صاحبه رحمه الله أكثر من شهرته باسمه الذي

---

(١) من تقديم بعض الباحثين لتفسير ابن عطية (١/ ٢٨).

(٢) زاد المسير في علم التفسير (١/ ١١).

سماه به مؤلفه، بل عند ذكر اسمه أحيانًا لا يذكر الاسم الكامل له الذي وضعه له القرطبي، فقد صرح القرطبي باسمه كاملاً في مقدمته فقال: " وسميته بـ(الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان)[١].

٧- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي:

لم يصرح أبو حيان رحمه الله بهذا الاسم في مقدمته، لكني وجدته قد ذكره بذلك في بعض كتبه؛ ففي كتابه النحوي(التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل) وسمه باسمه في ثلاثة مواضع، فقال في إحداها: " وقد خرَّجناه نحن في كتابنا في التفسير المسمى بـ(البحر المحيط) على أن تكون حيثُ باقية على بابها من الظرفية"[٢].

٨- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء ابن كثير الدمشقي:

لم أجد في مقدمة ابن كثير رحمه الله التصريح بهذا الاسم، ولا في بعض كتبه التي اطلعت عليها، لكنه يشير إليه في بعض كتبه الأخرى بلفظ" تفسيرنا" كقوله في كتابه(البداية والنهاية): "وقد أوردنا الحديث بطرقه وألفاظه، وكلام الأئمة عليه في تفسيرنا عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء:١٥]. "[٣].

قال محققه الأستاذ: سامي بن محمد سلامة: " وأما عنوانه، فالمشهور "تفسير القرآن العظيم"، وجاء ذلك على طرة النسخة "ط"، وبعض النسخ تسميه: "تفسير

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٣).

(٢) التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل (١٠/ ٢٩٥)، وينظر فيه: (٤/ ٨٢) (٨/ ١٢٣).

(٣) البداية والنهاية ط هجر (٢/ ٥٥٥).

ابن كثير"[١]. وفي الحقيقة أن نسبته إلى مؤلفه أشهر من نسبته إلى اسمه الموضوع له.

٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الثناء الآلوسي:

صرح الآلوسي رحمه الله بهذا الاسم في مقدمته، وله في هذه التسمية لتفسيره قصة، ساقها في مقدمته بطريقة مسجوعة فقال: " وبعد أن أبرمت حبل النية، ونشرت مطوي الأمنية، وعرا المخاض قريحة الأذهان وقرب ظهور طفل التفسير للعيان، جعلت أفكر ما اسمه، وبماذا أدعوه إذا وضعته أمه، فلم يظهر لي اسم تهتش له الضمائر، وتبتش من سماعه الخواطر، فعرضت الحال لدى حضرة وزير الوزراء ونور حديقة البهاء ونور حدقة الوزراء، آية الله التي لا تنسخها آية، ورب النهى الذي ليس له نهاية، وصاحب الأخلاق التي ملك بها القلوب، ومعدن الأذواق التي يكاد أن يعلم معها الغيوب[٢]، مولانا علي رضا باشا، لا زال له الرضا غطاء وفراشا، فسماه على الفور وبديهة ذهنه تغني عن الغور (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) فيا له اسم ما أسماه! نسأل الله تعالى أن يطابقه مسماه"[٣].

١٠- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لابن عاشور التونسي:

هذا هو الاسم التام لتفسير ابن عاشور رحمه الله، وقد صرح به في مقدمته،

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٣٣).

(٢) وهذه من أبي الثناء لا تستحق الثناء؛ لأنها مجانبة للقصد إلى الإيغال!

(٣) روح المعاني (١/ ٥).

وذكر أنه اختصر هذا الاسم إلى (التحرير والتنوير من التفسير)، قال ابن عاشور: " وسميته: (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد). واختصرت هذا الاسم باسم: (التحرير والتنوير من التفسير)"[1].

ومع هذا لم يشتهر إلا باسم: (التحرير والتنوير).

(١) التحرير والتنوير (١/ ٨-٩).

المطلب الخامس
حديث المفسر عن تفسيره

لقد تحدث هؤلاء الأئمة المقدِّمون عن تفاسيرهم، فذكروا في مقدماتها أموراً كثيرة عنها، فكان من حديثهم عنها في تلك المقدمات:

بيان نيتهم السابقة في تأليف تفسير لكتاب الله، وذكر قصة تأليف ذلك التفسير، ومكان تأليفه، وما يحتويه من العلوم والمعارف.

كما بينوا مناهجهم في تفاسيرهم، واهتماماتهم وترتيبهم وشروطهم ومصادرهم وأعمالهم العلمية فيها.

ووضحوا أيضًا الجهود التي بذلوها، والغايات التي راموها منها، ودعوا الله ورجوا من وراء ذلك العمل التفسيري لهم أن ينال القبول عند الله، والنفع للناس.

وسلك بعضهم مسلك المدح لتفسيره، وتميزه على غيره، وكونه جاء في وقت حاجة إليه، وتشوف الناس إلى خروجه للشمس كي يستفيدوا منه.

وهذا مجمل ما ذُكر في المقدمات العشر من المفسرين حول تفاسيرهم، وكل له مما ذكرنا نصيب، وهم بين مستقل ومستكثر في ذلك.

أولا: الطبري:

تحدث الطبري عن تفسيره فذكر ما سيحتويه تفسيره، ودعا الله تعالى بالتوفيق لتأويل كلام الله، وإصابة القول فيه، فقال رحمه الله: "ونحن -في شرح تأويله،

وبيان ما فيه من معانيه- منشئون -إن شاء الله ذلك- كتابًا مستوعِبًا لكل ما بالناس إليه الحاجة من علمه جامعا، ومن سائر الكتب غيره في ذلك كافيا. ومخبرون في كل ذلك بما انتهى إلينا من اتفاق الحجة فيما اتفقت عليه منه، واختلافها فيما اختلفت فيه منه. ومُبيِّنو عِلَل كل مذهب من مذاهبهم، ومُوَضِّحو الصحيح لدينا من ذلك، بأوجز ما أمكن من الإيجاز في ذلك، وأخصر ما أمكن من الاختصار فيه.

والله نسألُ عونه وتوفيقه لما يقرب من محَابِّهِ، ويبْعد من مَساخِطه[1].

ثانيًا: الماوردي:

تكلم الماوردي عما سيعتني به تفسيره، وما سيحتويه من الأقاويل، ووجوه البيان.

فقال رحمه الله: "الحمد لله الذي هدانا لدينه القويم، ومنَّ علينا بكتابه المبين، وخصه بمعجز دل على تنزيله، ومنع من تبديله، وبيّن به صدق رسوله، وجعل ما استودعه على نوعين: ظاهراً جليا، وغامضاً خفيا، يشترك الناس في علم جليه، ويختص العلماء بتأويل خفيه، حتى يعم الإعجاز، ثم يحصل التفاضل والامتياز.

ولما كان ظاهر الجلي مفهومًا بالتلاوة، وكان الغامض الخفي لا يعلم إلا من وجهين: نقل واجتهاد؛ جعلت كتابي هذا مقصوراً على تأويل ما خفي علمه، وتفسير ما غمض تصوره وفهمه، وجعلته جامعاً بين أقاويل السلف والخلف، وموضحاً

(١) تفسير الطبري(١/ ٦-٧).

عن المؤتلف والمختلف، وذاكراً ما سنح به الخاطر من معنى يحتمل، عبرت عنه بأنه محتمل، ليتميز ما قيل مما قلته، ويعلم ما استخرج مما استخرجته.

وعدلت عما ظهر معناه من فحواه؛ اكتفاء بفهم قارئه، وتصور تاليه، ليكون أقرب مأخذا، وأسهل مطلبا.

وقدمت لتفسيره فصولا، تكون لعمله أصولا، يستوضح منها ما اشتبه تأويله، وخفي دليله، وأنا أستمد الله حسن معونته"[١].

ثالثًا: الزمخشري:

تحدث الزمخشري عن تفسيره حديثًا طويلاً، فكان مما ذكر: بيانه تفسير بعض الآيات لبعض أصحابه من المعتزلة، فكانوا يستحسنون ما يذكر، ويتمنون أن لو جمع ذلك في مصنف، فاقترحوا ذلك عليه، لكنه استعفى، فراجعوا وتشفعوا بعلمائهم لديه، ثم ذكر رحلته لمجاورة البيت الحرام، ومروه ببلدان يتعطش ناس من أهلها لما أملاه من تفسير بعض الآيات، كما ذكر تلهف الأمير علي بن حمزة إلى ذلك أيضًا.

فلما رأى كل ذلك بدأ بكتابة تفسيره، وكان يقدر تمامه في مدة خلافة الخلفاء الراشدين وهي ثلاثون سنة، ففرغ منه في مدة خلافة أقصرهم مدة، وهي سنتان وأربعة أشهر[٢].

---

(١) النكت والعيون (١/ ٢١).

(٢) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (١/ ٦٧٦).

فقال رحمه الله: "لقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إليّ في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحُجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب واستطيروا شوقًا إلى مصنف يضم أطرافًا من ذلك، حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملي عليهم: (الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد. والذي حداني على الاستعفاء علمي أنهم طلبوا ما الإجابة إليه عليّ واجبة؛ لأنّ الخوض فيه كفرض العين ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله، وركاكة رجاله، وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم، فضلاً أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمي المعاني والبيان.

فأمليت عليهم مسألة في الفواتح، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة، وكان كلامًا مبسوطًا كثير السؤال والجواب، طويل الذيول والأذناب، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم، وأن يكون لهم مناراً ينتحونه، ومثالاً يحتذونه.

فلما صمم العزم على معاودة جوار اللَّه والإناخة بحرم اللَّه، فتوجهت تلقاء مكة، وجدت في مجتازي بكل بلد من فيه مسكة من أهلها- وقليل ما هم- عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المملى، متطلعين إلى إيناسه، حُرّاصًا على اقتباسه، فهزّ ما رأيت من عِطفي، وحرّك الساكن من نشاطي.

فلما حططت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السَّنية، من الدوحة الحسنية: الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول اللَّه أبي الحسن علي بن حمزة بن وهاس، أدام اللَّه

مجده، وهو النكتة والشامة في بنى الحسن، مع كثرة محاسنهم وجموم مناقبهم- أعطش الناس كبداً، وألهبهم حشى، وأوفاهم رغبة، حتى ذكر أنه كان يحدّث نفسه- في مدّة غيبتي عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه من المشادّة- بقطع الفيافي وطي المهامه، والوفادة علينا بخوارزم؛ ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض.

فقلت: قد ضاقت على المستعفي الحيل، وعيّت به العلل، ورأيتني قد أخذت مني السنّ، وتقعقع الشنّ، وناهزت العشر التي سمتها العرب دقاقة الرقاب[1]، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى مع ضمان التكثير من الفوائد، والفحص عن السرائر.

ووفق اللَّه وسدّد، ففرغ منه في مقدار مدّة خلافة أبى بكر الصدّيق رضى اللَّه عنه، وكان يقدّر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة، وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرّم، وبركة أُفيضت عليّ من بركات هذا الحرم المعظم.

أسأل اللَّه أن يجعل ما تعبت فيه منه سبباً ينجيني، ونوراً لي على الصراط يسعى بين يدي وبيميني، ونعم المسئول"[2].

رابعًا: ابن عطية:

تكلم ابن عطية عن تفسيره فذكر أن الفوائد التي علقت بذهنه عن علم التفسير

---

(١) (دقاقة الرقاب)، مثل يضرب في الهلاك. والعشر المشار إليه ما بين الستين إلى السبعين. فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (١/ ٦٧٥).

(٢) الكشاف (المقدمة/ ٣-٤).

يخشى عليها من الذهاب، فكان لابد من تقييدها في كتاب. ثم أشار إلى محتوى كتابه بأنه سيكون جامعًا وجيزاً محرراً.

ولم ينسَ ذكر منهجه فيه، فبين ما سيذكره فيه وما سينزهه عنه. وذكر ما بذله من الجهد في التفسير، فكان كتابه هذا ثمرة كل ذلك. ثم ختم بدعاء الله تعالى بأن يجعل فيه البركة.

فقال رحمه الله: "فلما سلكت سبله بفضل الله ذُللا، وبلغت من اطراد الفهم فيه أملا، رأيت أن نكته وفوائده تغلب قوة الحفظ وتفدح، وتسنح لمن يروم تقييدها في فكره وتبرح، وأنها قد أخذت بحظها من الثقل، فهي تتفصى من الصدر تفصي الإبل من العقل. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾[المزمل:٥] . قال المفسرون: أي: علم معانيه والعمل بها، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (قيدوا العلم بالكتاب)[1]. ففزعت إلى تعليق ما يتخيل لي في المناظرة من علم التفسير وترتيب المعاني، وقصدت فيه أن يكون جامعًا وجيزاً محرراً، لا أذكر من القصص إلا ما لا تنفك الآية إلا به، وأثبت أقوال العلماء في المعاني منسوبة إليهم على ما تلقى السلف الصالح- رضوان الله عليهم- كتاب الله من مقاصده العربية السليمة من إلحاد أهل القول بالرموز، وأهل القول بعلم الباطن، وغيرهم.

فمتى وقع لأحد من العلماء الذين قد حازوا حسن الظن بهم لفظ ينحو إلى

---

(١) رواه الحاكم المستدرك (١/ ١٨٨)، والطبراني، المعجم الكبير (١/ ٢٤٦)، وقال الهيثمي: " رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١/ ١٥٢). وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٥/ ٤٠).

شيء من أغراض الملحدين، نبهت عليه.

وسردت التفسير في هذا التعليق بحسب رتبة ألفاظ الآية من حكم، أو نحو، أو لغة، أو معنى، أو قراءة. وقصدت تتبع الألفاظ حتى لا يقع طفر كما في كثير من كتب المفسرين. ورأيت أن تصنيف التفسير كما صنع المهدوي- رحمه الله- مفرق للنظر، مشعب للفكر. وقصدت إيراد جميع القراءات: مستعملها وشاذها، واعتمدت تبيين المعاني وجميع محتملات الألفاظ، كل ذلك بحسب جهدي وما انتهى إليه علمي، وعلى غاية من الإيجاز وحذف فضول القول.

وأنا أسأل الله جلت قدرته، أن يجعل ذلك كله لوجهه، وأن يبارك فيه وينفع به.

وأنا وإن كنت من المقصرين فقد ذكرت في هذا الكتاب كثيراً من علم التفسير، وحملت خواطري فيه على التعب الخطير، وعمرت به زمني، واستفرغت فيه مُنني[1]؛ إذ كتاب الله تعالى لا يتفسر إلا بتصريف جميع العلوم فيه، وجعلته ثمرة وجودي، ونخبة مجهودي، فليستصوب للمرء اجتهاده، وليعذر في تقصيره وخطئه، وحسبنا الله ونعم الوكيل"[2].

خامسًا: ابن الجوزي:

تحدث ابن الجوزي عن تفسيره فذكر أنه نظر إلى كتب التفاسير فوجدها بين طويل ممل، وصغير مخل، ومتوسط قليل الفوائد، فجاء بتفسيره مختصراً منطويًا على العلم الغزير.

---

(١) الْمُنَّة: الْقُوَّة. المعجم الوسيط (٢/ ٨٨٩).

(٢) تفسير ابن عطية (١/ ٣٤-٣٥).

فقال رحمه الله: "وإني نظرت في جملة من كتب التفسير فوجدتها بين كبير قد يئس الحافظ منه، وصغير لا يستفاد كل المقصود منه، والمتوسط منها قليل الفوائد، عديم الترتيب، وربما أهمل فيه المشكل، وشرح غير الغريب، فأتيتك بهذا المختصر اليسير، منطويًا على العلم الغزير، ووسمته بـ زاد المسير في علم التفسير . وقد بالغت في اختصار لفظه، فاجتهد- وفقك الله- في حفظه، والله المعين على تحقيقه، فما زال جائداً بتوفيقه"(١).

كما ذكر -رحمه الله- ما عابه على بعض المفسرين في تفاسيرهم من تفويتهم بعض الفنون المحتاج إليها التفسير، فاستدرك ذلك في تفسيره هذا.

كما عرج على الحديث عن بعض منهجه فيه، ولم يفته المدح لتفسيره، واختصاصه على التفاسير الأخرى بميزات تفرد بها.

فقال: "لما رأيت جمهور كتب المفسرين لا يكاد الكتاب منها يفي بالمقصود كشفه حتى ينظر للآية الواحدة في كتب، فربّ تفسير أخل فيه بعلم الناسخ والمنسوخ، أو ببعضه، فإن وجد فيه لم يوجد أسباب النزول، أو أكثرها، فإن وجد لم يوجد بيان المكي من المدني، وإن وجد ذلك لم توجد الإشارة إلى حكم الآية، فإن وجد لم يوجد جواب إشكال يقع في الآية، إلى غير ذلك من الفنون المطلوبة.

وقد أدرجت في هذا الكتاب من هذه الفنون المذكورة مع ما لم أذكره مما لا يستغني التفسير عنه ما أرجو به وقوع الغَناء بهذا الكتاب عن أكثر ما يجانسه.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (١/ ١١).

وقد حذرت من إعادة تفسير كلمة متقدمة إلا على وجه الإشارة، ولم أغادر من الأقوال التي أحطت بها إلا ما تبعد صحته مع الاختصار البالغ، فإذا رأيت في فرش الآيات ما لم يذكر تفسيره، فهو لا يخلو من أمرين: إما أن يكون قد سبق، وإما أن يكون ظاهراً لا يحتاج إلى تفسير.

وقد انتقى كتابنا هذا أنقى التفاسير، فأخذ منها الأصح والأحسن والأصون، فنظمه في عبارة الاختصار"[1].

سادسًا: القرطبي:

تحدث القرطبي عن تفسيره فبين سبب إقباله على الاشتغال بعلم التفسير، والكتابة فيه، وذكر ما سيحتويه كتابه من الأقوال والعلوم.

كما أنه عمله لمقاصد وذكرها، فقال رحمه الله: "وبعد، فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجمع علوم الشرع، الذي استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشتغل به مدى عمري، وأستفرغ فيه مُنَّتي بأن أكتب تعليقًا وجيزاً، يتضمن نكتًا من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعًا بين معانيها، ومبينًا ما أشكل منها، بأقاويل السلف، ومن تبعهم من الخلف. وعملته تذكرة لنفسي، وذخيرة ليوم رمسي، وعملاً صالحًا بعد موتي. قال الله تعالى:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (١/ ١٤).

﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾[القيامة:١٣]، وقال تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾[الانفطار:٥]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)(١)(٢).

ثم بين منهجه في تفسيره، ونبه على أهمية نسبة الأقوال إلى قائليها، وذكر إعراضه عما لا ينبغي ذكره في التفسير، وصرح باعتياضه عن ذلك بذكر مسائل الأحكام.

فقال رحمه الله: "وشرطي في هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله. وكثيراً ما يجئ الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهماً، لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث، فيبقى من لا خبره له بذلك حائراً، لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم، فلا يقبل منه الاحتجاج به، ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى من خرجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام. ونحن نشير إلى جمل من ذلك في هذا الكتاب، والله الموفق للصواب.

وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لابد منه، ولا غنى عنه للتبيين، واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام، بمسائل تفسير عن معناها،

---

(١) رواه مسلم/كتاب الوصية/ باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، (٣/ ١٢٥٥) (١٦٣١).
(٢) تفسير القرطبي (١/ ٣).

وترشد الطالب إلى مقتضاها، فضمنت كل آية لتضمن حكمًا أو حكمين فما زاد مسائل نبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير الغريب والحكم، فإن لم تتضمن حكمًا ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل، هكذا إلى آخر الكتاب. وسميته بـ (الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان) جعله الله خالصًا لوجهه، وأن ينفعني به ووالدي ومن أراده بمنه، إنه سميع الدعاء، قريب مجيب، آمين"[1].

سابعًا: أبو حيان:

أما أبو حيان فقد ذكر عزمه على الاقتصار على النظر في تفسير كلام الله إذا بلغ الستين، ولكنه بلغ مقصده لما انتصب لتدريس التفسير في قبة السلطان الملك المنصور، وذكر سنة تأليفه لتفسيره، وسنَّه في ذلك الوقت. كما ذكر عكوفه مدة على انتخاب تفسيره من التفاسير، وإيداعه لطائف ودقائق.

ثم لوى عنان كلامه إلى الثناء على تفسيره.

فقال رحمه الله: "وما زال يختلج في ذكري، ويعتلج في فكري، أني إذا بلغت الأمد الذي يتغضد فيه الأديم، ويتنغص برؤيتي النديم، وهو العقد الذي يحل عرى الشباب، المقول فيه: (إذا بلغ الرجل الستين، فإياه وإيا الشواب)، ألوذ بجناب الرحمن، وأقتصر على النظر في تفسير القرآن، فأتاح الله لي ذلك قبل بلوغ ذلك العقد، وبلغني ما كنت أروم من ذلك القصد، وذلك بانتصابي مدرسًا في علم

(١) تفسير القرطبي (١/ ٣).

التفسير في قبة السلطان الملك المنصور...وكان ذلك في أواخر سنة عشر وسبعمائة، وهي أوائل سنة سبع وخمسين من عمري.

فعكفت على تصنيف هذا الكتاب، وانتخاب الصفو واللباب، أجيل الفكر فيما وضع الناس في تصانيفهم، وأنعم النظر فيما اقترحوه من تآليفهم، فألخص مطولها، وأحل مشكلها، وأقيد مطلقها، وأفتح مغلقها، وأجمع مبددها، وأخلص منقدها، وأضيف إلى ذلك ما استخرجته القوة المفكرة من لطائف علم البيان، المطلع على إعجاز القرآن، ومن دقائق علم الإعراب، المغرب في الوجود أي إغراب، المقتنص في الأعمار الطويلة من لسان العرب، وبيان الآداب.

فكم حوى من لطيفةٍ فكري مستخرجُها، ومن غريبةٍ ذهني منتجها، تحصلت بالعكوف على علم العربية، والنظر في التراكيب النحوية، والتصرف في أساليب النظم والنثر، والتقلب في أفانين الخطب والشعر، لم يهتد إلى إثارتها ذهن، ولا صاب بريقها مزن، وأنى ذلك وهي أزاهر خمائل غُفل، ومناظر ما لمستغلق أبوابها من قُفل.

في إدراك مثلها تتفاوت الأفهام، وتتبارى الأوهام، وليس العلم على زمان مقصورا، ولا في أهل زمان محصورا، بل جعله الله حيث شاء من البلاد، وبثه في التهائم والنجاد، وأبرزه أنواراً تتوسم، وأزهاراً تتنسم"[1].

ويتابع حديثه عن تفسيره فيذكر مكان تأليفه له، وما رجا من وراء تأليفه إياه، ومن قصد به، فيقول: "حتى ألقيت بمصر عصا التسيار...وبها صنفت تصانيفي،

(١) البحر المحيط (١/ ١٠).

وألفت تآليفي، ومن بركاتها علي تصنيفي لهذا الكتاب، المقرِّب من رب الأرباب، المرجو أن يكون نوراً يسعى بين يديّ، وستراً من النار يضفو علي، فما لمخلوق بتأليفه قصدت، ولا غير وجه الله به أردت"(١).

وبعد هذا صرح أبو حيان بمنهجه التفصيلي في تفسيره للآيات، فبين ما سيفعله، وما سيدعه، فقال رحمه الله: "وترتيبي في هذا الكتاب: أني أبتدئ أولاً بالكلام على مفردات الآية التي أفسرها، لفظة لفظة، فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب.

وإذا كان للكلمة معنيان أو معان ذكرت ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة، لينظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه، فيحمل عليه، ثم أشرع في تفسير الآية، ذاكراً سبب نزولها إذا كان لها سبب، ونسخها ومناسبتها وارتباطها بما قبلها، حاشداً فيها القراءات: شاذها ومستعملها، ذاكراً توجيه ذلك في علم العربية، ناقلاً أقاويل السلف والخلف في فهم معانيها، متكلمًا على جليها وخفيها، بحيث إني لا أغادر منها كلمة- وإن اشتُهرت- حتى أتكلم عليها، مبديًا ما فيها من غوامض الإعراب، ودقائق الآداب من بديع وبيان، مجتهداً أني لا أكرر الكلام في لفظ سبق، ولا في جملة تقدم الكلام عليها، ولا في آية فسرت، بل أذكر في كثير منها الحوالة على الموضع الذي تكلم فيه على تلك اللفظة أو الجملة أو الآية، وإن عرض تكرير فبمزيد فائدة، ناقلاً أقاويل الفقهاء الأربعة، وغيرهم في الأحكام الشرعية مما فيه تعلق باللفظ القرآني، محيلاً على الدلائل التي في كتب الفقه. وكذلك ما نذكره من

(١) البحر المحيط (١/ ١١).

القواعد النحوية أحيل في تقررها والاستدلال عليها على كتب النحو، وربما أذكر الدليل إذا كان الحكم غريبًا، أو خلاف مشهور ما قال معظم الناس، بادئًا بمقتضى الدليل وما دل عليه ظاهر اللفظ مرجحًا لذلك، ما لم يصد عن الظاهر ما يجب إخراجه به عنه، منكبًا في الإعراب عن الوجوه التي تنزه القرآن عنها، مبينًا أنها مما يجب أن يعدل عنه، وأنه ينبغي أن يحمل على أحسن إعراب وأحسن تركيب؛ إذ كلام الله تعالى أفصح الكلام، فلا يجوز فيه جميع ما يجوزه النحاة في شعر الشماخ والطرماح وغيرهما من سلوك التقادير البعيدة، والتراكيب القلقة، والمجازات المعقدة.

ثم أختتم الكلام في جملة من الآيات التي فسرتها إفراداً وتركيبًا بما ذكروا فيها من علم البيان والبديع، ملخصًا. ثم أتبع آخر الآيات بكلام منثور أشرح به مضمون تلك الآيات على ما أختاره من تلك المعاني، ملخصًا جملها في أحسن تلخيص، وقد ينجر معها ذكر معان لم تتقدم في التفسير. وصار ذلك أنموذجًا لمن يريد أن يسلك ذلك فيما بقي من سائر القرآن. وستقف على هذا المنهج الذي سلكته، إن شاء الله تعالى. وربما ألممت بشيء من كلام الصوفية مما فيه بعض مناسبة لمدلول اللفظ، وتجنبت كثيراً من أقاويلهم ومعانيهم التي يحملونها الألفاظ، وتركت أقوال الملحدين الباطنية المخرجين الألفاظ القريبة عن مدلولاتها في اللغة إلى هذيان افتروه على الله تعالى، وعلى علي كرم الله وجهه وعلى ذريته، ويسمونه علم التأويل..."[1].

واختتم أبو حيان كلامه عن تفسيره بذكر أهم مصدر من مصادره، فقال:

(١) البحر المحيط(١/ ١٢-١٣).

"واعتمدت، في أكثر نقول كتابي هذا على كتاب (التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير)، من جمع شيخنا الصالح القدوة الأديب: جمال الدين أبي عبد الله محمد بن سليمان بن حسن بن حسين المقدسي، عرف بابن النقيب، رحمه الله تعالى[1].

ثم ذكر أبو حيان رأيه في هذا الكتاب، وسيأتي ذلك معنا في المطلب السادس، إن شاء الله.

ثامنًا: الآلوسي:

تحدث الآلوسي عن تفسيره كثيراً، فمما قاله عنه: ذكره حاله مع تفسير كلام الله وجده واجتهاده في استكشاف معاني القرآن، ومقارنة حاله في ذلك بحال من يضيعون أوقاتهم ويريقونها في مسارح اللهو والزهو.

ولم يغفل عن الثناء على نفسه، وإخباره بأنه قد بدأ من سن العشرين في إدراك حل إشكالات لم يظفر بها في كتب التفسير.

ثم شكا من عري عصره عن العلم وكبار أهله، غير أنه قد بقي من أهل العلم ثلة فاضلة فاقتطف من أزهار علمهم.

وأخبر أنه كان كثيراً ما تحدثه نفسه بإيداع ما في صدره من علم كتاب الله في كتاب، حتى رأى رؤيا فعبرت له بتأليف كتاب تفسير، فشرع في تأليف تفسيره وذكر تاريخ الشروع وسنه في ذلك الوقت. فقال رحمه الله-بعد حديثه عن القرآن-: "وإني

---

(١) البحر المحيط (١/ ٢٢).

-ولله تعالى المنة- مذ ميطت عني التمائم، ونيطت على رأسي العمائم لم أزل متطلبًا لاستكشاف سره المكتوم، مترقبًا لارتشاف رحيقه المختوم، طالما فرقت نومي لجمع شوارده، وفارقت قومي لوصال خرائده. فلو رأيتني وأنا أصافح بالجبين صفحات الكتاب من السهر، وأطالع- إن أعوز الشمع يومًا- على نور القمر، في كثير من ليالي الشهر. وأمثالي إذ ذاك يرفلون في مطارف اللهو، ويرقلون في ميادين الزهو، ويؤثرون مسرات الأشباح على لذات الأرواح، ويهبون نفائس الأوقات، لنهب خسائس الشهوات. وأنا مع حداثة سني، وضيق عطني لا تغرني حالهم ولا تغيرني أفعالهم. كأن لبني لبانتي، ووصال سعدي سعادتي.

حتى وقفت على كثير من حقائقه، ووفقت لحل وفير من دقائقه. وثقبت- والثناء لله تعالى- من دره بقلم فكري دراً مثمنا، ولا بدع فأنا -من فضل الله- الشهاب وأبو الثناء.

وقبل أن يكمل سني عشرين جعلت أصدح به وأصدع، وشرعت أدفع كثيراً من إشكالات الأشكال، وأدفع وأتجاهر بما ألهمنيه ربي مما لم أظفر به في كتاب من دقائق التفسير، وأعلق على ما أغلق مما لم تعلق به ظفر كل ذي ذهن خطير.

ولست أنا أول من منّ الله تعالى عليه بذلك، ولا آخر من سلك في هاتيك المسالك؛ فكم وكم للزمان ولد مثلي، وكم تفضل الفرد -عز شأنه- على كثير بأضعاف فضلي.

ألا إنما الأيام أبناء واحدٍ وهذي الليالي كلها أخواتُ

إلا أن رياض هذه الأعصار، عراها إعصار، وحياض تيك الأمصار اعتراها اعتصار. فصار العلم بالعيوق والعلماء أعز من بيض الأنوق، والفضل معلَّق بأجنحة النسور، وميت حي الأدب لا يرجى له نشور.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامرُ

ولكن الملك المنان أبقى من فضله الكثير قليلاً من ذوي العرفان في هذه الأزمان، دينهم اقتناص الشوارد، وديدنهم افتضاض أبكار الفوائد، يروون فيروون، ويقدحون فيورون، لكل منهم مزية لا يستتر نورها، ومرتبة لا ينتشر نورها، طالما اقتطفت من أزهارهم، واقتبست من أنوارهم، وكم صدرٍ منهم أودعت علمه صدري، وحبر فيهم أفنيت في فوائده حبري، ولم أزل مدة على هذه الحال لا أعبأ بما عبا لي مما قيل أو يقال كتاب الله لي أفضل مؤانس، وسميري إذا احلولكت ظلمة الحنادس.

...وكانت كثيراً ما تحدثني في القديم نفسي أن أحبس في قفص التحرير ما اصطاده الذهن بشبكة الفكر، أو اختطفه بأن الإلهام في جو حدسي، فأتعلل تارة بتشويش البال بضيق الحال، وأخرى بفرط الملال لسعة المجال. إلى أن رأيت في بعض ليالي الجمعة من رجب الأصم سنة الألف والمائتين والاثنتين والخمسين بعد هجرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رؤيا لا أعدها أضغاث أحلام، ولا أحسبها خيالات أوهام أن الله جل شأنه وعظم سلطانه أمرني بطي السماوات والأرض، ورتق فتقهما على الطول والعرض، فرفعت يداً إلى السماء وخفضت الأخرى إلى مستقر الماء، ثم انتبهت من نومتي، وأنا مستعظم رؤيتي، فجعلت أفتش لها عن

تعبير، فرأيت في بعض الكتب أنها إشارة إلى تأليف تفسير. فرددت حينئذ على النفس تعللها القديم، وشرعت مستعينًا بالله تعالى العظيم، وكأني -إن شاء الله تعالى- عن قريب عند إتمامه بعون عالم سري ونجواي أنادي وأقول غير مبال بتشنيع جهول: هذا تأويل رؤياي[1].

وكان الشروع في الليلة السادسة عشرة من شعبان المبارك من السنة المذكورة وهي السنة الرابعة والثلاثون من سني عمري، جعلها الله تعالى بسني لطفه معمورة..."[2][3].

تاسعًا: ابن عاشور:

أما ابن عاشور فقد ذكر أمنيته منذ زمن بعيد لتأليف تفسير، ثم ذكر صفته، لكنه كان وقتئذ يخشى تقحم هذا المجال، وبيّن أسباب ذلك، وظل مراوحًا في ذلك بين الإقدام والإحجام، حتى تولى الفتيا، فاستعان بالله فشرع في كتابة تفسيره، ووضح ما سيكون عليه هذا التفسير من بين التفاسير.

---

(١) ولما انتهى الآلوسي من تفسيره قال: "وبعد، فهذا- والحمد لله- تأويل رؤياي من قبل، قد جعلها ربي حقا، فأسعدني وله الشكر بالتوفيق لتفسير كتابه العزيز الذي لا يذل من لاذ به ولا يشقى..." روح المعاني (١٥/ ٥٢٧).

(٢) روح المعاني (١/ ٤-٥).

(٣) قال الشاعر العراقي الفارقي المتوفى سنة ١٢٨٩هـ عن روح المعاني:

يقولون قد مات الشهاب أبو الثنا ... وباتت عليه أعين العلم باكيهْ

فقلت لهم ما مات من زال شخصه ... وروح معانيه إلى الحشر باقيهْ.

جلاء العينين في محاكمة الأحمدين (ص: ٥٨).

فقال رحمه الله: أما بعد: فقد كان أكبر أمنيتي منذ أمد بعيد، تفسير الكتاب المجيد، الجامع لمصالح الدنيا والدين، وَمَوْثِقٌ شديد العرى من الحق المتين، والحاوي لكليات العلوم ومعاقد استنباطها، والآخذ قوس البلاغة من محل نياطها؛ طمعًا في بيان نكت من العلم، وكليات من التشريع، وتفاصيل من مكارم الأخلاق، كان يلوح أنموذج من جميعها في خلال تدبره، أو مطالعة كلام مفسره، ولكني كنت على كلفي بذلك أتجهم التقحم على هذا المجال، وأحجم عن الزج بِسِيَةِ قوسي في هذا النضال؛ اتقاء ما عسى أن يعرض له المرء نفسه من متاعب تنوء بالقوة، أو فلتات سهام الفهم وإن بلغ ساعد الذهن كمال الفتوة، فبقيت أسوِّف النفس مرة، ومرة أسومها زجرا، فإن رأيت منها تصميمًا أحلتها على فرصة أخرى، وأنا آمل أن يمنح من التيسير، ما يشجع على قصد هذا الغرض العسير.

وفيما أنا بين إقدام وإحجام، أتخيل هذا الحقل مَرَّةً الْقَتَادَ وَأُخْرَى الثُّمَامَ إذا أنا بأملي قد خيل إلي أنه تباعد أو انقضى، إذا قدر أن تسند إلي خطة القضا[1]، فبقيت متلهفًا ولات حين مناص، وأضمرت تحقيق هاته الأمنية متى أجمل الله الخلاص، وكنت أحادث بذلك الأصحاب والإخوان، وأضرب المثل بأبي الوليد ابن رشد في كتاب (البيان)[2]، ولم أزل كلما مضت مدة يزداد التمني وأرجو إنجازه، إلى أن

(١) فِي ٢٦ رَمَضَان ١٣٣١ هـ وَالْقَضَاء هُنَا بِالْقصرِ لمراعاة السجع. [من تعليق ابن عاشور].

(٢) حيث ذكر أنه شرع فيه، ثم عاقه عنه تقليد خطة القضاء بقرطبة فعزم على الرجوع إليه إن أريح من القضاء، وأنه عرض عزمه على أمير المؤمنين علي بن يوسف ابن تاشفين، فأجابه لذلك وأعفاه من القضاء ليعود إلى إكمال كتابه «البيان والتحصيل» وهذا الكتاب هو شرح جليل على كتاب «العتبية» الذي جمع فيه العتبي سماع أصحاب مالك منه، وسماع أصحاب ابن القاسم منه. [من تعليق ابن عاشور].

أوشك أن تمضي عليه مدة الحيازة، فإذا الله قد منَّ بالنقلة إلى خطة الفتيا(١)، وأصبحت الهمة مصروفة إلى ما تنصرف إليه الهمم العليا، فتحول إلى الرجاء ذلك اليأس، وطمعت أن أكون ممن أوتي الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس. هنالك عقدت العزم على تحقيق ما كنت أضمرته، واستعنت بالله تعالى واستخرته، وعلمت أن ما يهول من توقع كلل أو غلط، لا ينبغي أن يحول بيني وبين نسج هذا النمط، إذا بذلت الوسع من الاجتهاد، وتوخيت طرق الصواب والسداد.

أقدمت على هذا المهم إقدام الشجاع على وادي السباع، متوسطًا في معترك أنظار الناظرين وزائرًا بين ضُبَاحِ الزائرين(٢)، فجعلت حقًا علي أن أبدي في تفسير القرآن نكتًا لم أر من سبقني إليها، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها وآونة عليها، فإن الاقتصار على الحديث المعاد، تعطيل لفيض القرآن الذي ماله من نفاد"(٣).

ثم تحدث ابن عاشور عن نظرته إلى التفاسير السابقة، ومأخذه عليها، ثم تناول بالذكر أهم التفاسير لديه، وأنها كانت مصادر له، ولم يعز إليها طلبًا للاختصار، وأشار إلى أنه سيميز ما فتح الله به عليه مما لم يذكره المفسرون.

يقول رحمه الله: "والتفاسير وإن كانت كثيرة فإنك لا تجد الكثير منها إلا عالة

---

(١) في ٢٦ رجب ١٣٤١ هـ. [من تعليق ابن عاشور].

(٢) الزائرين هُنَا اسْم فَاعل من زأر بِهَمْزَة بعد الزَّاي، وَهُوَ الَّذِي مصدره الزئير، وَهُوَ صَوت الْأسد. [من تعليق ابن عاشور].

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٥-٧).

على كلام سابق، بحيث لا حظ لمؤلفه إلا الجمع على تفاوت بين اختصار وتطويل.

وإن أهم التفاسير: تفسير الكشاف، والمحرر الوجيز، لابن عطية، ومفاتيح الغيب، لفخر الدين الرازي، وتفسير البيضاوي، الملخص من الكشاف، ومن مفاتيح الغيب، بتحقيق بديع، وتفسير الشهاب الآلوسي، وما كتبه الطيبي والقزويني والقطب والتفتازاني على الكشاف، وما كتبه الخفاجي على تفسير البيضاوي، وتفسير أبي السعود، وتفسير القرطبي، والموجود من تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسي، من تقييد تلميذه الأبي وهو بكونه تعليقًا على تفسير ابن عطية، أشبه منه بالتفسير؛ لذلك لا يأتي على جميع آي القرآن، وتفاسير الأحكام، وتفسير الإمام محمد ابن جرير الطبري، وكتاب درة التنزيل، المنسوب لفخر الدين الرازي، وربما ينسب للراغب الأصفهاني. ولقصد الاختصار أعرض عن العزو إليها.

وقد ميزت ما يفتح الله لي من فهم في معاني كتابه وما أجلبه من المسائل العلمية، مما لا يذكره المفسرون، وإنما حسبي في ذلك عدم عثوري عليه فيما بين يدي من التفاسير في تلك الآية خاصة، ولست أدعي انفرادي به في نفس الأمر، فكم من كلام تنشئه، تجدك قد سبقك إليه متكلم، وكم من فهم تستظهره وقد تقدمك إليه متفهم، **وقديما قيل:**

هل غادر الشعراء من متردم"[1].

ثم تكلم عن اهتماماته بالعلوم التي تخدم تفسير الآيات، وذكر منهجه في تفسير

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧).

الآيات، ثم أثنى على تفسيره، وذكره بما اختص به دون سائر التفاسير. فقال رحمه الله: " إن معاني القرآن ومقاصده ذات أفانين كثيرة، بعيدة المدى مترامية الأطراف، موزعة على آياته؛ فالأحكام مبينة في آيات الأحكام، والآداب في آياتها، والقصص في مواقعها، وربما اشتملت الآية الواحدة على فنين من ذلك أو أكثر. وقد نحا كثير من المفسرين بعض تلك الأفنان، ولكن فنًّا من فنون القرآن لا تخلو عن دقائقه ونكته آية من آيات القرآن، وهو فن دقائق البلاغة هو الذي لم يخصه أحد من المفسرين بكتاب كما خصوا الأفانين الأخرى، من أجل ذلك التزمت أن لا أغفل التنبيه على ما يلوح لي من هذا الفن العظيم في آية من آي القرآن كلما ألهمته بحسب مبلغ الفهم وطاقة التدبر.

وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز، ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال، واهتممت أيضًا ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض، وهو منزع جليل قد عني به فخر الدين الرازي، وألف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمى: نظم الدرر في تناسب الآي والسور، إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع، فلم تزل أنظار المتأملين لفضل القول تتطلع. أما البحث عن تناسب مواقع السور بعضها إثر بعض، فلا أراه حقًا على المفسر.

ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها؛ لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفرداته ومعاني جمله كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه، وتحجب عنه روائع جماله.

واهتممت بتبيين معاني المفردات في اللغة العربية بضبط وتحقيق مما خلت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة.

وعسى أن يجد فيه المطالع تحقيق مراده، ويتناول منه فوائد ونكتًا على قدر استعداده، فإني بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير، ومن أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبو إليه همم النحارير، بحيث ساوى هذا التفسير على اختصاره مطولات القماطير، ففيه أحسن ما في التفاسير، وفيه أحسن مما في التفاسير"[1][2].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٨).

(٢) قال ابن عاشور في خاتمة كتابه: " يقول محمد الطاهر ابن عاشور: قد وفيت بما نويت، وحقق الله ما ارتجيت، فجئت بما سمح به الجهد من بيان معاني القرآن ودقائق نظامه وخصائص بلاغته، مما اقتبس الذهن من أقوال الأئمة، واقتدح من زند لإنارة الفكر وإلهاب الهمة، وقد جئت بما أرجو أن أكون وفقت فيه للإبانة عن حقائق مغفول عنها، ودقائق ربما جلت وجوهًا ولم تجل كنهها؛ فإن هذا منال لا يبلغ العقل البشري إلى تمامه، ومن رام ذلك فقد رام والجوزاء دون مرامه.

وإن كلام رب الناس، حقيق بأن يخدم سعيًا على الرأس، وما أدى هذا الحق إلا قلم المفسر يسعى على القرطاس، وإن قلمي طالما استن بشوط فسيح، وكم زجر عند الكلال والإعياء زجر المنيح، وإذ قد أتى على التمام فقد حق له أن يستريح.

وكان تمام هذا التفسير عصر يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رجب عام ثمانين وثلاثمائة وألف. فكانت مدة تأليفه تسعًا وثلاثين سنة وستة أشهر. وهي حقبة لم تخل من أشغال صارفة، ومؤلفات أخرى أفنانها وارفة، ومنازع بقريحة شاربة طوراً وطوراً غارفة، وما خلا ذلك من تشتت بال، وتطور أحوال، مما لم تخل عن الشكاية منه الأجيال، ولا كفران لله فإن نعمه أوفى، ومكاييل فضله علي لا تطفف ولا تكفا.

وأرجو منه تعالى لهذا التفسير أن ينجد ويغور، وأن ينفع به الخاصة والجمهور، ويجعلني به من الذين يرجون تجارة لن تبور.

وكان تمامه بمنزلي ببلد المرسى شرقي مدينة تونس، وكتبه: محمد الطاهر ابن عاشور". التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٣٦-٦٣٧).

المطلب السادس
كلام المقدِّمين عن بعض الكتب ومؤلفيها

تناول بعض هؤلاء الأئمة المقدِّمين في مقدماتهم كتبًا بالثناء، وبينوا فضلها وأهميتها في دراية العلوم، والاستعانة بها في تفسير كلام الله، ومعرفة شرائع دينه.

فمن ذلك كتاب سيبويه رحمه الله، فقد ذكر القرطبي مما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به قولَه: "ومن كماله: أن يعرف الإعراب والغريب، فذلك مما يسهل عليه معرفة ما يقرأ، ويزيل عنه الشك فيما يتلو. وقد قال أبو جعفر الطبري: سمعت الجرمي يقول: أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه. قال محمد بن يزيد: وذلك أن أبا عمر الجرمي كان صاحب حديث، فلما علم كتاب سيبويه تفقه في الحديث؛ إذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفسير"(١).

أما أبو حيان فقد مدح كتاب سيبويه مدحًا عظيمًا، وذكر أثره العظيم في فهم كتاب الله، ونصح كل من يريد التفسير بالعكوف عليه، فقال: " فالكتاب هو المرقاة إلى فهم الكتاب(٢)؛ إذ هو المطلع على علم الإعراب، والمبدي من معالمه ما درس، والمنطق من لسانه ما خرس، والمحيي من رفاته ما رمس، والراد من نظائره ما

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٢١).

(٢) الكتاب الأول كتاب سيبويه، والكتاب الثاني هو القرآن الكريم، فهو من باب الجناس التام؛ كقول أبي نواس يمدح عبّاسَ بن فضل الأنصاري الذي ولي قضاء الموصل في عهد الرشيد، ويمدح الفضل بن الربيع بن يونس وزير الرشيد، ثم وزير الأمين، ويمدح الربيع بن يونس، وزير المنصور العباسي، في بيت واحد:

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إِذَا احْتَدَمَ الوغَى والْفَضْلُ فَضْلٌ، والرَّبيعُ رَبيعُ

البلاغة العربية (٢/ ٤٨٨).

طمس. فجدير لمن تاقت نفسه إلى علم التفسير، وترقّت إلى التحقيق فيه والتحرير، أن يعتكف على كتاب سيبويه، فهو في هذا الفن المعول عليه، والمستند في حل المشكلات إليه"[(١)][(٢)].

ومن ذلك أيضًا: ما ذكره أبو حيان عن (التحرير والتحبير) لابن النقيب؛ فقد جعله معتمدَه في نقول كتابه، وذكر أنه أكبر كتاب صنف في التفسير، لكن أبا حيان عاب عليه أشياء، حيث قال: " واعتمدت في أكثر نقول كتابي هذا على كتاب (التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير)، من جمع شيخنا الصالح القدوة الأديب: جمال الدين أبي عبد الله محمد بن سليمان بن حسن بن حسين المقدسي، عرف بابن النقيب، رحمه الله تعالى؛ إذ هو أكبر كتاب رأيناه صنف في علم التفسير، يبلغ في العدد مائة سفر أو يكاد.

إلا أنه كثير التكرير، قليل التحرير، مفرط الإسهاب، لم يعدُ جامعُه مِن نسخ كُتب في كتابه، كذلك كان فيه بحال التهذيب، ومراد الترتيب"[(٣)][(٤)].

---

(١) البحر المحيط (١/ ١١).

(٢) قال ابن كثير عن سيبويه: " وقد صنف في النحو كتابًا لا يلحق شأوه، وشرحه أئمة النحاة بعده، فانغمروا في لجج بحره، واستخرجوا من جواهر حاصله، ولم يبلغوا إلى قعره". البداية والنهاية (١٣/ ٦٠٧). وقال ابن تيمية: " كتاب سيبويه في العربية لم يصنف بعده مثله". مجموع الفتاوى (١١/ ٣٧٠).

(٣) البحر المحيط(١/ ٢٢).

(٤) وابن النقيب هو: العلامة، جمال الدين، أبو عبد الله: محمد بن سليمان، المعروف: بابن النقيب المقدسي، الحنفي. المتوفى: سنة ثمان وتسعين وستمائة. واسم الكتاب كاملاً: (التَّحْرِير والتحبير لأقوال ائمة التَّفْسِير فِي مَعَاني كَلَام السَّمِيع الْبَصِير). ذكره الشعرائي، وقال: ما طالعت أوسع منه. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٣٥٨)، هدية العارفين (٢/ ١٣٩).

ومن ذلك أيضًا: كتاب الكشاف، والمحرر الوجيز، فقد أطال أبو حيان الحديث عنهما؛ فأثنى على مؤلفيهما، وذكر فضل تفسيريهما واشتهارهما، ومكانتهما بين التفاسير، وقارن بينهما، ووجه لسان الانتقاد إليهما في أمور، كما نقل عن ابن خاقان مدحه لتفسير ابن عطية.

فقال رحمه الله: "وهذا أبو القاسم محمود بن عمر المشرقي الخوارزمي الزمخشري، وأبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المغربي الغرناطي؛ أجل من صنف في علم التفسير، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير. وقد اشتهرا ولا كاشتهار الشمس، وخلدا في الأحياء وإنْ هذان في الرمس. وكلامهما فيه ما يدل على تقدمهما في علوم، من منثور ومنظوم، ومنقول ومفهوم، وتقلب في فنون الآداب، وتمكن من علمي المعاني والإعراب، وفي خطبتي كتابيهما وفي غضون كتاب الزمخشري ما يدل على أنهما فارسا ميدان، وممارسا فصاحة وبيان... وقد ذكر الوزير أبو نصر الفتح بن خاقان الأشبيلي في كتابه المسمى (قلائد العقيان ومحاسن الأعيان) أبا محمد بن عطية، فقال فيه: (نبعة روح العلا، ومحرز ملابس الثنا، فذّ الجلالة، وواحد العصر والأصالة، وقارٌ كما رسا الهضب، وأدبٌ كما اطرد السلسل العذب، أثره في كل معرفة عَلَم في رأسه نار، وطوالعه في آفاقها صبح ونهار. وقد أثبت من نظمه ما ينفح عبيرا، ويتضح منيرا، وأورد له نثراً كما نظم قلائد، ونظمًا تزدان بمثله أجياد الولائد، من ألفاظ عذبة تستنزل برقّتها العصم، ومعان مبتكرة تفحم الألد الخصم، أبقت له ذكراً مخلداً على جبين الدهر، وعَرْفًا أرجا كتضوع الزهر).

ولما كان كتاباهما في التفسير قد أنجدا وأغارا، وأشرقا في سماء هذا العلم بدرين وأنارا، وتنزلا من الكتب التفسيرية منزلة الإنسان من العين، والذهب الإبريز من

العين، ويتيمة الدر من اللآلي، وليلة القدر من الليالي، فعكف الناس شرقًا وغربًا عليهما، وثنوا أعنة الاعتناء إليهما، وكان فيهما على جلالتهما مجال لانتقاد ذوي التبريز، ومسرح للتخييل فيهما والتمييز؛ ثنيت إليهما عنان الانتقاد، وحللت ما تخيل الناس فيهما من الاعتقاد أنهما في التفسير الغاية التي لا تدرك، والمسلك الوعر الذي لا يكاد يسلك، وعرضتهما على محك النظر، وأوريت فيهما نار الفكَر، حتى خلص دسيسهما، وبرز نفيسهما.

وسيرى ذلك من هو للنظر أهل، واجتمع فيه إنصاف وعدل، فإنه يتعجب من التولج على الضراغم، والتحرز لأشبالها والأنف راغم، إذ هذان الرجلان هما فارسا علم التفسير، وممارسا تحريره والتحبير. نشراه نشرا، وطار لهما به ذكرا، وكانا متعاصرين في الحياة، متقاربين في الممات... وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص، وكتاب الزمخشري ألخص وأغوص، إلا أن الزمخشري قائل بالطفرة، ومقتصر من الذؤابة على الوفرة، فربما سنح له آبي المقادة فأعجزه اغتياصه، ولم يمكنه لتأنيه اقتناصه، فتركه عقلاً لمن يصطاده، وغفلاً لمن يرتاده، وربما ناقض هذا المنزع، فثنى العنان إلى الواضح، والسهل اللائح، وأجال فيه كلاما، ورمى نحو غرضه سهاما، هذا مع ما في كتابه من نصرة مذهبه، وتقحم مرتكبه، وتجشم حمل كتاب الله عز وجل عليه، ونسبة ذلك إليه. فمغتفر إساءته لإحسانه، ومصفوح عن سقطه في بعض لإصابته في أكثر تبيانه"[(١)(٢)].

---

(١) البحر المحيط (١/ ٢٠-٢١).

(٢) وممن قارن بين هذين التفسيرين ابن تيمية؛ حيث قال رحمه الله: " وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل؛ فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري، وهو من أجل =

ثم يجيء بعد أبي حيان بقرون ابن عاشور فيثني على الزمخشري وابن عطية وعلى كتابيهما، ويعقد مقارنة يسيرة بينهما، فيقول رحمه الله: " ثم تلاحق العلماء في تفسير القرآن، وسلك كل فريق مسلكًا يأوي إليه وذوقًا يعتمد عليه... ومنهم من سلك مسلك النظر؛ كأبي إسحاق الزجاج، وأبي علي الفارسي، وشغف كثير بنقل القصص عن الإسرائيليات، فكثرت في كتبهم الموضوعات، إلى أن جاء في عصر واحد عالمان جليلان أحدهما بالمشرق، وهو: العلامة أبو القاسم محمود الزمخشري، صاحب (الكشاف)، والآخر بالمغرب بالأندلس وهو: الشيخ عبد الحق بن عطية، فألف تفسيره المسمى بـ(المحرر الوجيز)، كلاهما يغوص على معاني الآيات، ويأتي بشواهدها من كلام العرب ويذكر كلام المفسرين، إلا أن منحى البلاغة والعربية بالزمخشري أخص، ومنحى الشريعة على ابن عطية أغلب، وكلاهما عضادتا الباب، ومرجع مَن بعدهما من أولي الألباب"[1].

= التفاسير وأعظمها قدراً، ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين، وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم، وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة، لكن ينبغي أن يعطى كل ذي حق حقه، ويعرف أن هذا من جملة التفسير على المذهب". مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص: ٣٧). وقال أيضًا: " و (تفسير ابن عطية) خير من تفسير الزمخشري، وأصح نقلاً وبحثًا، وأبعد من البدع. وإن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير، لكن تفسير ابن جرير أصح من هذه كلها". مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص: ٥٣).

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٥-١٦).

المطلب السابع
كُتب لأصحاب المقدمات أشاروا إليها في مقدماتهم

لم تكن هذه التفاسير لهؤلاء الأئمة -رحمهم الله- هي ما خلفوا من التآليف النافعة فحسب، بل لهم كتب أخرى، أشار بعضهم إلى بعضها في مقدمات تفاسيرهم.

ولعل من الفوائد في معرفة تلك الكتب: أن يكون ذكرها لهم من أدلة التوثيق لصحة نسبة تلك الكتب لمصنفيها.

وقد وجدت أربعة من هؤلاء المفسرين العشرة ذكر بعض أسماء مصنفاته في مقدمته، **وهم:**

١-الطبري:

فقد أشار إلى كتابين من كتبه فقال رحمه الله: " وقد بيَّنا الصواب من القول عندنا في ذلك في كتابنا: (اللطيف في أحكام شرائع الإسلام) بوجيز من القول، ونستقصي بيان ذلك بحكاية أقوال المختلفين فيه من الصحابة والتابعين والمتقدمين والمتأخرين في كتابنا: (الأكبر في أحكام شرائع الإسلام) إن شاء الله ذلك"[(١)].

٢-أبو حيان:

فقد ذكر أنه نظم منظومة في القراءات كالشاطبية، فقال رحمه الله: " وأنشأت في

(١) تفسير الطبري (١/ ١٠٩).

هذا العلم كتاب عقد اللآلي، قصيداً في عروض قصيد الشاطبي، ورويه، يشتمل على ألف بيت وأربعة وأربعين بيتًا، صرحت فيها بأسامي القراء من غير رمز ولا لغز، ولا حوشي لغة، وأنشأته من كتب تسعة، **كما قلت:**

تـنظّم هـذا العقـد مـن درِّ تـسعة ... مـن الكتـب فالتيـسير عنوانـه انجـلا
بكـاف لتجريـد وهـاد لتبـصره ... وإقنـاع تلخيـصين أضـحى مكمـلا
جنيـت لـه إنـسيَّ لفـظٍ لطيفـه ... وجانبـت وحـشيًا كثيفًـا معقـلا"[1][2]

٣-الآلوسي:

ففي معرض كلام الآلوسي عن نزول القرآن بسبعة أحرف قال رحمه الله: " ومما ذكرناه علمت أن القلب يميل إلى هذا السابع فافهم، وقد حققنا بعض الكلام في هذا المقام في كتابنا (الأجوبة العراقية، عن الأسئلة الإيرانية)"[3][4].

٤-ابن عاشور:

فقد أشار إلى كتاب حديثي له عند ذكره لحديث: (ما من الأنبياء نبي إلا أوتي

---

(١) البحر المحيط(١/ ١٦).

(٢) واسم المنظومة: (عقد اللآلي في القراءات السبع العوالي). قال ابن الجزري: " من نظم الإمام الأستاذ: أبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، في وزن الشاطبية ورويها، أيضًا لم يأت فيها برمز، وزاد فيها التيسير كثيرا. قرأته وقرأت بمضمنها على ابن اللبان وقرأها، وقرأ بمضمنها على ناظمها المذكور وقرأتها أيضًا على جماعة عن الناظم المذكور". النشر في القراءات العشر (١/ ٩٥).

(٣) تفسير الألوسي (١/ ٢٢).

(٤) وذكر الكتاب ابنه نعمان في جلاء العينين في محاكمة الأحمدين (ص: ٥٨).

من الآيات ما مثله آمن عليه البشر)[١]، **فقال رحمه الله:** "وفي هذا الحديث معان جليلة ليس هذا مقام بيانها، وقد شرحتها في تعليقي على (صحيح البخاري) المسمى: (النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح)[٢].

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (بعثت بجوامع الكلم)، (٦/ ٢٦٥٤)(٦٨٤٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه و سلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١/ ١٣٤) (١٥٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٧١).

المطلب الثامن
منتقى الفوائد

هذا المطلب هو المطلب الأخير من هذا البحث، وقد جعلته عِقداً ينتظم منثور الفوائد، ويجمع اللطائف الشوارد، فكم من فائدة بُثت في ثنايا المقدمات العشر، كرهت أن أغادرها دون أن أدونها ليستفيد منها باغي المعرفة.

وهذه الفوائد متنوعة: ففيها أقوال واعظة، وأوصاف بليغة، ونثر وشعر، وآثار وآداب، ونصائح ومآثر، وأخبار وعِبر ومعلومات.

وقد جعلتها على الترتيب الآتي:

القرآن وأهله

القرآن وإصلاح الناس:

قال ابن عاشور: "إن القرآن أنزله الله تعالى كتابًا لصلاح أمر الناس كافة، رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[النحل:٨٩]. فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية، فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد؛ لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر.

وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولاً من الصلاح الفردي؛ إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات، ومواثبة القوى النفسانية، وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية.

وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك؛ إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورعي المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع"[١].

وقال أيضًا: "إن الغرض الأكبر للقرآن هو إصلاح الأمة بأسرها؛ فإصلاح كفارها بدعوتهم إلى الإيمان، ونبذ العبادة الضالة واتباع الإيمان والإسلام، وإصلاح المؤمنين بتقويم أخلاقهم، وتثبيتهم على هداهم، وإرشادهم إلى طرق النجاح، وتزكية نفوسهم"[٢].

العمل بالقرآن:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهل علينا العمل به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به"[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٨).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٨١).

(٣) تفسير القرطبي (١/ ٤٠).

وعن ابن عمر قال: "كان الفضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الامة يقرءون القرآن منهم الصبي والأعمى، ولا يرزقون العمل به"(١).

لماذا لا يمل القرآن:

"**وقيل لجعفر بن محمد الصادق:** لِمَ صار الشعر والخطب يمل ما أعيد منها، والقرآن لا يمل؟!.

فقال: لأن القرآن حجة على أهل الدهر الثاني، كما هو حجة على أهل الدهر الأول، فكل طائفة تتلقاه غضًا جديداً، ولأن كل امرئ في نفسه متى أعاده وفكر فيه تلقى منه في كل مرة علومًا غضة، وليس هذا كله في الشعر والخطب"(٢).

فضيلة عظيمة للقرآن:

قال ابن كثير: "عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة"(٣)... وفي هذا

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٤٠).

(٢) تفسير ابن عطية (١/ ٣٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل (٤/ ١٩٠٥) (٤٦٩٦). ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه و سلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١/ ١٣٤) (١٥٢).

الحديث فضيلة عظيمة للقرآن المجيد على كل معجزة أعطيها نبي من الأنبياء، وعلى كل كتاب أنزله، وذلك أن معنى الحديث: ما من نبي إلا أعطي من المعجزات ما آمن عليه البشر، أي: ما كان دليلاً على تصديقه فيما جاءهم به واتبعه من اتبعه من البشر، ثم لما مات الأنبياء لم يبق لهم معجزة بعدهم إلا ما يحكيه أتباعهم عما شاهده في زمانه، فأما الرسول الخاتم للرسالة محمد صلى الله عليه وسلم فإنما كان معظم ما آتاه الله وحيًا منه إليه منقولاً إلى الناس بالتواتر، ففي كل حين هو كما أنزل، فلهذا قال: (فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا). وكذلك وقع؛ فإن أتباعه أكثر من أتباع الأنبياء لعموم رسالته ودوامها إلى قيام الساعة، واستمرار معجزته؛ ولهذا قال الله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾[الفرقان:١]. وقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[الإسراء:٨٨]. ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[هود:١٣]. ثم تحداهم إلى أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[يونس:٣٨].

وقصر التحدي على هذا المقام في السور المكية كما ذكرنا، وفي المدنية أيضًا كما في سورة البقرة، حيث يقول تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٢٣، ٢٤].

فأخبرهم بأنهم عاجزون عن معارضته بمثله، وأنهم لا يفعلون ذلك في المستقبل أيضًا.

وهذا وهم أفصح الخلق وأعلمهم بالبلاغة والشعر وقريض الكلام وضروبه، لكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد من البشرية من الكلام الفصيح البليغ، الوجيز، المحتوي على العلوم الكثيرة الصحيحة النافعة، والأخبار الصادقة عن الغيوب الماضية والآتية، والأحكام العادلة والمحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[الأنعام:١١٥]"(١).

الاحتفاء بالقرآن:

قال القرطبي: "عن نافع عن ابن عمر قال: تعلم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزوراً. (شكراً لله)"(٢).

السُّلمي وتعليم القرآن:

قال ابن كثير: "وقد كان أبو عبد الرحمن السلمي الكوفي -أحد أئمة الإسلام ومشايخهم-من رغب في هذا المقام، فقعد يعلم الناس في إمارة عثمان إلى أيام الحجاج، قالوا: وكان مقدار ذلك الذي مكث فيه يعلم القرآن سبعين سنة، رحمه الله، وآتاه الله ما طلبه ودامه. آمين"(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٤٠).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٦٨).

وقال القرطبي: "عن العوام بن حوشب: أن أبا عبد الرحمن السلمي كان إذا ختم عليه الخاتم القرآن أجلسه بين يديه ووضع يده على رأسه وقال له: يا هذا، اتق الله! فما أعرف أحداً خيراً منك إن عملت بالذي علمت"(١).

تعليم الأطفال القرآن:

قال ابن كثير: "وقال ابن عباس: توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن عشر سنين، وقد قرأت المحكم.

ففيه دلالة على جواز تعليمهم القرآن في الصبا، وهو ظاهر، بل قد يكون مستحبًا أو واجبًا؛ لأن الصبي إذا تعلم القرآن بلغ وهو يعرف ما يصلي به، وحفظه في الصغر أولى من حفظه كبيراً، وأشد علوقًا بخاطره وأرسخ وأثبت، كما هو المعهود من حال الناس، وقد استحب بعض السلف أن يترك الصبي في ابتداء عمره قليلاً للعب، ثم توفر همته على القراءة؛ لئلا يلزم أولا بالقراءة فيملها ويعدل عنها إلى اللعب، وكره بعضهم تعليمهم القرآن وهو لا يعقل ما يقال له، ولكن يترك حتى إذا عقل وميز علم قليلاً قليلاً بحسب همته ونهمته وحفظه وجودة ذهنه، واستحب عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن يلقن خمس آيات خمس آيات"(٢).

نصائح غالية لحامل القرآن:

قال القرطبي: "فيجب على حامل القرآن وطالب العلم أن يتقي الله في نفسه،

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٦).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٧٤-٧٥).

ويخلص العمل لله، فإن كان تقدم له شيء مما يكره فليبادر التوبة والإنابة، وليبتدئ الإخلاص في الطلب. عمله. فالذي يلزم حامل القرآن من التحفظ أكثر مما يلزم غيره، كما أن له من الأجر ما ليس لغيره"[١].

وقال أيضًا: "وينبغي له أن يكون عالِماً بأهل زمانه، متحفظًا من سلطانه، ساعيًا في خلاص نفسه، ونجاة مهجته، مقدمًا بين يديه ما يقدر عليه من عرض دنياه، مجاهداً لنفسه في ذلك ما استطاع. وينبغي له أن يكون أهم أموره عنده الورع في دينه، واستعمال تقوى الله ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه"[٢].

وقال أيضًا: "فقرأة القرآن حملةُ سر الله المكنون، وحفظة علمه المخزون، وخلفاء أنبيائه وأمناؤه، وهم أهله وخاصته وخيرته وأصفياؤه، قال رسول الله صلى اله عليه وسلم: (إن لله أهلين منا) قالوا: يا رسول الله، من هم؟ قال: (هم أهل القرآن أهل الله وخاصته) أخرجه ابن ماجه في سننه، وأبو بكر البزار في مسنده[٣]. فما أحق من علم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكر ما شرح له فيه، ويخشى الله ويتقيه، ويراقبه ويستحييه؛ فإنه حمل أعباء الرسل، وصار شهيداً في القيامة على من خالف من أهل الملل، قال الله تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[البقرة:١٤٣].

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ١٩).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٢٠).

(٣) رواه ابن ماجه، سنن ابن ماجه، كتاب افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل من تعلم القرآن وعلمه (١/ ٧٨) (٢١٥)، والنسائي، سنن النسائي الكبرى، كتاب فضائل القرآن، باب أهل القرآن، (٥/ ١٧)(٨٠٣١)، وصححه الألباني. صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٨٠).

ألا وإن الحجة على من علمه فأغفله أوكد منها على من قصر عنه وجهله. ومن أوتي علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع، وارتكب من المآثم قبيحا، ومن الجرائم فضوحا، كان القرآن حجة عليه، وخصمًا لديه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والقرآن حجة لك أو عليك) خرجه مسلم(١).

فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته، ويتدبر حقائق عبارته، ويتفهم عجائبه، ويتبين غرائبه، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[ص:٢٩]. وقال الله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد:٢٤]. جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته، ويتدبره حق تدبره، ويقوم بقسطه، ويفي بشرطه، ولا يلتمس الهدى في غيره، وهدانا لأعلامه الظاهرة، وأحكامه القاطعة الباهرة، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة؛ فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة"(٢).

(١) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء (١/ ٢٠٣) (٢٢٣).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ١-٢).

في التفسير وعلومه

أهمية معرفة تفسير القرآن:

"**قال إياس بن معاوية:** مثل الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة لا يدرون ما في الكتاب. ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرؤوا ما في الكتاب"(١).

و"عن سعيد بنُ جبير، قال: من قرأ القرآنَ ثم لم يُفسِّره، كان كالأعمى أو كالأعرابي"(٢).

أهمية القراءات للمفسر:

قال ابن عاشور: "وأنا أرى أن على المفسر أن يبين اختلاف القراءات المتواترة؛ لأن في اختلافها توفيراً لمعاني الآية غالبًا، فيقوم تعدد القراءات مقام تعدد كلمات القرآن. وهذا يبين لنا أن اختلاف القراءات قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم كما ورد في حديث عمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم بن حزام"(٣)(٤).

---

(١) تفسير ابن عطية (١/ ٤٠).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٨١).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض (٢/ ٨٥١)(٢٢٨٧)، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه (١/ ٥٦٠) (٨١٨).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٥٦).

سمو إعجاز القرآن:

قال ابن عاشور: "لم أر غرضًا تناضلت له سهام الأفهام، ولا غاية تسابقت إليها جياد الهمم فرجعت دونها حسرى، واقتنعت بما بلغته من صبابة نزراً؛ مثل الخوض في وجوه إعجاز القرآن؛ فإنه لم يزل شغل أهل البلاغة الشاغل، وموردها للمعلول والناهل، ومغلى سبائها للنديم والواغل"(١).

تنوع طريقة التفسير لتنوع أحوال الناس:

قال أبو حيان: "وكانت تآليف المتقدمين أكثرها إنما هي شرح لغة، ونقل سبب، ونسخ، وقصص؛ لأنهم كانوا قريبي عهد بالعرب، وبلسان العرب. فلما فسد اللسان، وكثرت العجم، ودخل في دين الإسلام أنواع الأمم المختلفو الألسنة، والناقصو الإدراك، احتاج المتأخرون إلى إظهار ما انطوى عليه كتاب الله تعالى من غرائب التركيب، وانتزاع المعاني، وإبراز النكت البيانية؛ حتى يدرك ذلك من لم تكن في طبعه، ويكتسبها من لم تكن نشأته عليها، ولا عنصره يحركه إليها، بخلاف الصحابة والتابعين من العرب، فإن ذلك كان مركوزاً في طباعهم، يدركون تلك المعاني كلها، من غير موقف ولا معلم؛ لأن ذلك هو لسانهم وخطتهم وبيانهم، على أنهم كانوا يتفاوتون أيضًا في الفصاحة وفي البيان"(٢).

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠١).

(٢) البحر المحيط (١/ ٢٥-٢٦).

أقسام أسباب النزول:

قال ابن عاشور: "إن من أسباب النزول ما ليس المفسر بغنى عن علمه؛ لأن فيها بيان مجمل أو إيضاح خفي وموجز، ومنها ما يكون وحده تفسيراً، ومنها ما يدل المفسر على طلب الأدلة التي بها تأويل الآية أو نحو ذلك... ومنها ما ينبه المفسر إلى إدراك خصوصيات بلاغية تتبع مقتضى المقامات؛ فإن من أسباب النزول ما يعين على تصوير مقام الكلام"(١).

همة في معرفة التفسير:

"**قال الشعبي:** رحل مسروق إلى البصرة في تفسير آية، فقيل له: إن الذي يفسرها رحل إلى الشام، فتجهز ورحل إليه حتى علم تفسيرها"(٢).

أهمية علمي المعاني والبيان في إدراك علم التفسير:

قال ابن عاشور: "ولعلمي البيان والمعاني مزيد اختصاص بعلم التفسير؛ لأنهما وسيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية، وما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني وإظهار وجه الإعجاز؛ ولذلك كان هذان العلمان يسميان في القديم علم دلائل الإعجاز ...

وقال السكاكي في مقدمة القسم الثالث من كتاب «المفتاح» : «وفيما ذكرنا ما

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٧).

(٢) تفسير ابن عطية (١/ ٤٠).

ينبه على أن الواقف على تمام مراد الحكيم تعالى وتقدس من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين (المعاني والبيان) كل الافتقار، فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل» .

قال السيد الجرجاني في «شرحه» : «ولا شك أن خواص نظم القرآن أكثر من غيرها، فلا بد لمن أراد الوقوف عليها، إن لم يكن بليغًا سليقة، من هذين العلمين. وقد أصاب (السكاكي) بذكر الحكيم المحز، أي: أصاب المحز؛ إذ خص بالذكر هذا الاسم من بين الأسماء الحسنى؛ لأن كلام الحكيم يحتوي على مقاصد جليلة ومعاني غالية، لا يحصل الاطلاع على جميعها أو معظمها إلا بعد التمرس بقواعد بلاغة الكلام المفرغة فيه، وفي قوله ينبه إشارة إلى أن من حقه أن يكون معلومًا، ولكنه قد يغفل عنه، وقوله: فالويل كل الويل تنفير؛ لأن من لم يعرف هذين العلمين إذا شرع في تفسير القرآن واستخراج لطائفه

أخطأ غالبًا، وإن أصاب نادراً كان مخطئًا في إقدامه عليه اه» .

وقال في آخر فن البيان من «المفتاح»: «لا أعلم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ على المرء لمراد الله من كلامه من علمي المعاني والبيان، ولا أعون على تعاطي تأويل متشابهاته، ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه، ولكم آية من آيات القرآن تراها قد ضيمت حقها واستلبت ماءها ورونقها أن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم، فأخذوا بها في مآخذ مردودة، وحملوها على محامل غير مقصودة إلخ» .

وقال الشيخ عبد القاهر في «دلائل الإعجاز» . في آخر فصل المجاز الحكمي: «ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم، أن يتوهموا ألباب الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها (أي: على الحقيقة)، فيفسدوا المعنى بذلك ويبطلوا الغرض ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة وبمكان الشرف، وناهيك بهم إذا أخذوا في ذكر الوجوه وجعلوا يكثرون في غير طائل، هنا لك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه، وزند ضلالة قد قدحوا به» .

وقال أبو الوليد ابن رشد في جواب له عمن قال: إنه لا يحتاج إلى لسان العرب ما نصه: «هذا جاهل، فلينصرف عن ذلك وليتب منه؛ فإنه لا يصح شيء من أمور الديانة والإسلام إلا بلسان العرب يقول الله تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٥]. إلا أن يرى أنه قال ذلك لخبث في دينه فيؤدبه الإمام على قوله ذلك، بحسب ما يرى؛ فقد قال عظيما اهـ»

.... وقال في آخر فن البيان من «المفتاح»: «لا أعلم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ على المرء لمراد الله من كلامه من علمي المعاني والبيان، ولا أعون على تعاطي تأويل متشابهاته، ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه، ولكم آية من آيات القرآن تراها قد ضيمت حقها واستلبت ماءها ورونقها أن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم، فأخذوا بها في مآخذ مردودة، وحملوها على محامل غير مقصودة إلخ» "[1].

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٩-٢٠).

العلوم وأهلها

مدح العلوم الدينية:

قال الآلوسي: " إن العلوم وإن تباينت أصولها، وغربت وشرقت فصولها، واختلفت أحوالها، وأتهمت وأنجدت أقوالها، وتنوعت أبوابها، وأشأمت وأعرقت أصحابها، وتغايرت مسائلها، وأيمنت وأيسرت وسائلها؛ فهي بأسرها مهمة، ومعرفتها على العلات نعمة. إلا أن أعلاها قدرا، وأغلاها مهرا وأسناها مبنى، وأسماها معنى وأدقها فكرا وأرقها سرا، وأعرقها نسبا، وأعرفها أبا، وأقومها قيلا وأقواها قبيلا، وأحلاها لسانا وأجلاها بيانا، وأوضحها سبيلا وأصحها دليلا، وأفصحها نطقا وأمنحها رفقا؛ العلوم الدينية. والفهوم اللدنية. فهي شمس ضحاها وبدر دجاها، وخال وجنتها ولعس شفتها، ودعج عيونها وغنج جفونها، وحبب رضابها، وتنهد كعابها، ورقة كلامها، ولين قوامها.

على نفسه فليبك من ضاع عمرُه ... وليس له منها نصيب ولا سهمُ

فلا ينبغي لعاقل أن يستغرق النهار والليل إلا في غوص بحارها، أو يستنهض الرجل والخيل، إلا في سبر أغوارها. أو يصرف نفائس الأنفاس إلا في مهور أبكارها، أو ينفق بدر الأعمار إلا لتشوف بدر أسرارها.

إذا كان هذا الدمع يجري صبابةً ... على غير سلمى فهو دمع مضيَّعُ "[1].

---

(١) روح المعاني (١/ ٣-٤).

تداني الناس وتباعدهم في العلوم:

قال الزمخشري: " اعلم أنّ متن كلّ علم وعمود كل صناعة- طبقات العلماء فيه متدانية، وأقدام الصناع فيه متقاربة أو متساوية، إن سبق العالم العالم لم يسبقه إلا بخطى يسيرة، أو تقدّم الصانع الصانع لم يتقدّمه إلا بمسافة قصيرة، وإنما الذي تباينت فيه الرتب، وتحاكت فيه الركب، ووقع فيه الاستباق والتناضل، وعظم فيه التفاوت والتفاضل، حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد، وترقى إلى أن عدّ ألف بواحد- ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر، ومن لطائف معان يدق فيها مباحث للفكر، ومن غوامض أسرار، محتجبة وراء أستار، لا يكشف عنها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم، وإلا واسطتهم وفصهم، وعامتهم عماة عن إدراك حقائقها بأحداقهم عُناة في يد التقليد، لا يمنّ عليهم بجزّ نواصيهم وإطلاقهم"[1].

مجيء النية بعد الشروع:

قال القرطبي: "فقد يبتدئ الطالب للعلم يريد به المباهاة والشرف في الدنيا، فلا يزال به فهم العلم حتى يتبين أنه على خطأ في اعتقاده فيتوب من ذلك ويخلص النية لله تعالى، فينتفع بذلك ويحسن حاله. قال الحسن: كنا نطلب العلم للدنيا فجرّنا إلى الآخرة. وقاله سفيان الثوري. وقال ابن أبي ثابت: طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نية ثم جاءت النية بعدُ"[2].

---

(١) الكشاف (المقدمة/ ٢).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٢٢).

الحفظ والفهم:

قال القرطبي: "وقال أهل العلم بالحديث: لا ينبغي لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث وكتبه، دون معرفته وفهمه، فيكون قد أتعب نفسه من غير أن يظفر بطائل، ولكن تحفظه للحديث على التدريج قليلاً قليلاً مع الليالي والأيام. وممن ورد عنه ذلك من حفاظ الحديث شعبة وابن علية ومعمر"(١).

أبو حيان وهمته في طلب العلم وكثرة الحفظ:

قال أبو حيان: "وما زلت من لدن ميزت أتلمذ للعلماء، وأنحاز للفهماء، وأرغب في مجالسهم، وأنافس في نفائسهم، وأسلك طريقهم، وأتبع فريقهم، فلا أنتقل إلا من إمام إلى إمام، ولا أتوقل(٢) إلا ذروة علام. فكم صدر أودعت علمه صدري، وحَبر أفنيت في فوائده حِبري، وإمام أكثرت به الإلمام، وعلام أطلت معه الاستعلام، أشنف المسامع بما تحسد عليه العيون، وأذيل في تطلاب ذلك المال المصون، وأرتع في رياض وارفة الظلال، وأكرع في حياض صافية السلسال، وأقتبس بها من أنوارهم، وأقتطف من أزهارهم، وأبتلج من صفحاتهم، وأتأرج من نفحاتهم، وألقط من نثارهم، وأضبط من فضالة إيثارهم، وأقيد من شواردهم، وأنتقي من فرائدهم. فجعلت العلم بالنهار سحيري، وبالليل سميري، زمانَ غيري يقصر ساريه على الصِّبا، ويهب للهو ولا كهبوب الصَّبا، ويرفل في مطارف اللهو، ويتقمص أردية

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٤٠).

(٢) توقل: صعِد. المعجم الوسيط (٢/ ١٠٥٢).

الزهو، ويؤثر مسرات الأشباح، على لذات الأرواح، ويقطع نفائس الأوقات، في خسائس الشهوات، من مطعم شهي، ومشرب روي، وملبس بهي، ومركب خطي، ومفرش وطي، ومنصب سني، وأنا أتوسد أبواب العلماء، وأتقصد أماثل الفهماء، وأسهر في حنادس الظلام، وأصبر على شظف الأيام، وأوثر العلم على الأهل والمال والولد، وأرتحل من بلد إلى بلد"(١).

وقال أيضًا: "وقد حفظت في صغري في علم اللغة كتاب الفصيح لأبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني، واللغات المحتوي عليها دواوين مشاهير العرب الستة: امرئ القيس، والنابغة، وعلقمة، وزهير، وطرفة، وعنترة، وديوان الأفوه الأودي لحفظي عن ظهر قلب لهذه الدواوين. وحفظت كثيراً من اللغات المحتوي عليها نحو الثلث من كتاب الحماسة واللغات التي تضمنها قصائد مختارة من شعر حبيب بن أوس لحفظي ذلك"(٢).

أدبٌ في حكاية الخلاف:

قال ابن كثير: "﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[الكهف:٢٢]. فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام، وتعليم ما ينبغي في مثل هذا؛

(١) البحر المحيط (١/ ١١).

(٢) البحر المحيط (١/ ١٤).

فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين، وسكت عن الثالث، فدل على صحته؛ إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فقال في مثل هذا: ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال: ﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك؛ فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب.

فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها، وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم.

فأما من حكى خلافًا في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص؛ إذ قد يكون الصواب في الذي تركه، أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضًا؛ فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب، أو جاهلاً فقد أخطأ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالاً متعددة لفظًا ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبي زور"[1].

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٩).

في العربية

الحاجة إلى العربية في فهم القرآن:

"عن الحسن أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته؟ فقال: حسَن، فتعلمها؛ فإن الرجل يقرأ الآية فيعيا بوجهها، فيهلك فيها"(١).

الطريق إلى امتلاك الذوق العربي:

قال ابن عاشور: "وأما استعمال العرب، فهو التملي من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وأمثالهم وعوائدهم ومحادثاتهم؛ ليحصل بذلك لممارسة المولد ذوق يقوم عنده مقام السليقة والسجية عند العربي القح «والذوق كيفية للنفس بها تدرك الخواص والمزايا التي للكلام البليغ» قال شيخنا الجد الوزير: «وهي ناشئة عن تتبع استعمال البلغاء فتحصل لغير العربي بتتبع موارد الاستعمال والتدبر في الكلام المقطوع ببلوغه غاية البلاغة، فدعوى معرفة الذوق لا تقبل إلا من الخاصة وهو يضعف ويقوى بحسب مثافنة ذلك التدبر»، اهـ.

ولله دره في قوله: (المقطوع ببلوغه غاية البلاغة) المشير إلى وجوب اختيار الممارس لما يطالعه من كلامهم وهو الكلام المشهود له بالبلاغة بين أهل هذا الشأن، نحو: «المعلقات» و «الحماسة»، ونحو: «نهج البلاغة» و «مقامات الحريري» و «رسائل بديع الزمان»"(٢).

---

(١) روح المعاني (١/ ٦).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢١).

منثورات

قالوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم:

قال الطبري: "وفضَّل نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم من الدرجات بالعليا، ومن المراتب بالعُظمى. فحباه من أقسام كرامته بالقسم الأفضل، وخصه من درجات النبوّة بالحظ الأجزَل، ومن الأتباع والأصحاب بالنصيب الأوفر، وابتعثه بالدعوة التامة، والرسالة العامة، وحاطه وحيدًا، وعصمه فريدًا، من كل جبار عاند، وكل شيطان مارد، حتى أظهر به الدّين، وأوضح به السبيل، وأنهج به معالم الحق، وَمَحق به منار الشِّرك، وزهق به الباطلُ، واضمحل به الضلالُ، وخُدَعُ الشيطانِ، وعبادةُ الأصنام والأوثان، مؤيدًا بدلالة على الأيام باقية، وعلى الدهور والأزمان ثابتة، وعلى مَرِّ الشهور والسنين دائمة، يزداد ضياؤها على كرّ الدهور إشراقا، وعلى مرّ الليالي والأيام ائتلاقا، خِصِّيصَى من الله له بها دون سائر رسله -الذين قهرتهم الجبابرة، واستذلَّتهم الأمم الفاجرة، فتعفَّتْ بعدهم منهم الآثار، وأخملت ذكرهم الليالي والأيام- ودون من كان منهم مُرْسلاً إلى أمة دون أمة، وخاصّة دون عامةٍ، وجماعة دون كافَّة.

فالحمدُ لله الذي كرمنا بتصديقه، وشرّفنا باتِّباعه، وجعلنا من أهل الإقرار والإيمان به وبما دعا إليه، وجاء به. صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أزكى صلواته، وأفضلَ سلامه، وأتمَّ تحياته"(١).

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤).

وقال الزمخشري: "والصلاة [والسلام] على خير من أوحي إليه، حبيبِ اللَّه أبي القاسم، محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب بن هاشم ذي اللواء المرفوع في بنى لؤيّ، وذي الفرع المنيف في عبد مناف بن قصّي، المثبت بالعصمة، المؤيد بالحكمة، الشادخ الغرّة[1]، الواضح التحجيل، النبيّ الأميّ المكتوب في التوراة والإنجيل"[2].

فضيلة للصدِّيق رضي الله عنه:

قال ابن كثير: "قال الشيخ أبو الحسن الأشعري، رحمه الله: قد علم بالاضطرار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم أبا بكر في مرض الموت ليصلي بالناس، وقد ثبت في الخبر المتواتر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ليؤم القوم أقرؤهم)[3]. فلو لم يكن الصديق أقرأ القوم لما قدمه عليهم. نقله أبو بكر بن زنجويه في كتاب فضائل الصديق عن الأشعري"[4].

أعمال لأبي بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

قال ابن كثير-بعد ذكره جمع القرآن في عهد الصديق-: "وهذا من أحسن وأجل وأعظم ما فعله الصديق، رضي الله عنه؛ فإنه أقامه الله بعد النبي صلى الله عليه وسلم مقامًا لا ينبغي لأحد بعده؛ قاتل الأعداء من مانعي الزكاة، والمرتدين،

---

(١) الغرة: بياض في جبهة الفرس. والشادخة: هي الغرة إذا فشت في الوجه من الناصية إلى الأنف. فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (١/ ٦٤٤).

(٢) الكشاف (المقدمة/ ٢).

(٣) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع، باب من أحق بالإمامة؟ (١/ ٤٦٥) (٦٧٣).

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٢٤).

والفرس والروم، ونفذ الجيوش، وبعث البعوث والسرايا، ورد الأمر إلى نصابه بعد الخوف من تفرقه وذهابه، وجمع القرآن العظيم من أماكنه المتفرقة حتى تمكن القارئ من حفظه كله، وكان هذا من سر قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر:٩]. فجمع الصديق الخير وكف الشرور، رضي الله عنه وأرضاه. روى غير واحد من الأئمة منهم وكيع وابن زيد وقبيصة عن سفيان الثوري عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير عن عبد خير، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه قال: أعظم الناس أجرًا في المصاحف أبو بكر؛ إن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين . إسناده صحيح "(١).

رؤية ابن كثير لمصحف عثمان:

قال ابن كثير: "وأما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم: الذي في الشام بجامع دمشق، عند الركن شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله، وقد كانت قديمًا بمدينة طبرية، ثم نقل منها إلى دمشق في حدود ثمان عشرة وخمسمائة، وقد رأيته كتابًا عزيزاً جليلاً عظيمًا ضخمًا بخط حسن مبين قوي، بحبر محكم في رَق، أظنه من جلود الإبل، والله أعلم، زاده الله تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا "(٢).

خُلقوا للآخرة:

قال ابن كثير: "الأنبياء، عليهم السلام، لم يخلقوا للدنيا يجمعونها ويورثونها، إنما

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٥).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٤).

خلقوا للآخرة يدعون إليها ويرغبون فيه"[١].

كثرة الاستعمال:

قال القرطبي: ""بسم الله"، تكتب بغير ألف؛ استغناء عنها بباء الإلصاق في اللفظ والخط؛ لكثرة الاستعمال، بخلاف قوله: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾[العلق:١]. فإنها تحذف لقلة الاستعمال ..واختلفوا في حذفها مع الرحمن والقاهر، فقال الكسائي وسعيد الأخفش: تحذف الألف. وقال يحيى بن وثاب: لا تحذف إلا مع " بسم الله" فقط؛ لأن الاستعمال إنما كثر فيه. والله أعلم"[٢].

حقيقة:

قال ابن عاشور: " كل من يتصدى لتأليف كتاب في موضوع غير مشبع تمتلكه محبة التوسع فيه فلا ينفك يستزيد من ملتقطاته؛ ليذكي قبسه، ويمد نفسه، فيرضى بما يجد رضى الصب بالوعد، ويقول زدني من حديثك يا سعد، غير هياب لعاذل، ولا متطلب معذرة عاذر، وكذلك شأن الولع إذا امتلك القلب"[٣].

وصف الصحابة والآل:

قال الآلوسي: "فما برحوا حتى ربحوا، فباعوا نفوسا وشروا نفيسا، وقطعوا أسباب العلائق بالهمم الحقيقية. فما عرجوا حتى عرجوا، فلقوا عزيزا وألقوا خسيسا.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٧).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٩٩).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٤٦).

فهم النجوم المشرقة بنور الهدى، والرجوم المحرقة لشياطين الردى، رضي الله عنهم وأرضاهم.

ووالى متبعيهم وأولاهم، ما سرحت روح المعاني في رياض القرآن، وسبحت أشباح المباني في حياض العرفان"(١).

علم وهمة:

"**قال أبو بكر ابن العربي** في «العواصم» إنه أملى على سورة نوح خمسمائة مسألة، وعلى قصة موسى ثمانمائة مسألة"(٢).

وصف فضل نعمة الكلام وتفاضل الناس فيه:

قال الطبري: "إن من أعظم نعم الله تعالى ذكره على عباده، وجسيم مِنَّته على خلقه، ما منحهم من فَضْل البيان الذي به عن ضمائر صُدورهم يُبينون، وبه على عزائم نفوسهم يَدُلّون، فذَلَّل به منهم الألسن، وسهَّل به عليهم المستصعب. فبِهِ إياه يُوَحِّدون، وإيَّاه به يسَبِّحون ويقدِّسون، وإلى حاجاتهم به يتوصّلون، وبه بينهم يتَحاورُون، فيتعارفون ويتعاملون. ثم جعلهم، جلّ ذكره -فيما منحهم من ذلك- طبقاتٍ، ورفع بعضهم فوق بعض درجاتٍ: فبَيْنَ خطيب مسْهِب، وذَلِقِ اللسان مُهْذِب، ومفْحَمٍ عن نفسه لا يُبين، وَعيٍّ عن ضمير قلبه لا يعبَر.

---

(١) روح المعاني (١/ ٣).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٩).

وجعل أعلاهم فيه رُتبة، وأرفعهم فيه درجةً، أبلغَهم فيما أرادَ به بَلاغًا، وأبينَهم عن نفسه به بيانًا. ثم عرّفهم في تنزيله ومحكم آيِ كتابه فضلَ ما حباهم به من البيان، على من فضّلهم به عليه من ذي البَكَم والمُستَعْجِم اللسان فقال تعالى ذكرُه: ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[الزخرف: ١٨]. فقد وَضَحَ إذاً لذوي الأفهام، وتبين لأولي الألباب، أنّ فضلَ أهل البيان على أهل البَكَم والمستعجمِ اللسان، بفضل اقتدار هذا من نفسه على إبانة ما أراد إبانته عن نفسه ببيانه، واستعجام لسان هذا عما حاول إبانته بلسانه"[1].

(١) تفسير الطبري (١/ ٨-٩).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من ختم الله به النبوات والرسالات، محمد بن عبد الله، صلى عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فقد أتم الله علي -بفضله- هذا البحث، وفي نهايته أسجل أبرز ما توصلت إليه من نتائج، وأردفها بذكر بعض التوصيات.

أولاً: النتائج:

١. احتوت هذه المقدمات على كثير من مباحث علوم القرآن عمومًا، وما يتصل بعلم التفسير منها خصوصًا، كما اكتنزت في ضمن ذلك كثيراً من الفوائد واللطائف المتنوعة. غير أن بعض هؤلاء المقدمين لم يذكر شيئًا من مباحث علوم القرآن، إلا إشارات إلى بعض ما يتعلق بها؛ كالزمخشري.

٢. تعددت مناهج هؤلاء المقدمين في تسمية المباحث التي تناولوها في مقدماتهم؛ فبعضهم سماها

مقدمات، وبعضهم أبوابًا، وبعضهم فوائد، وبعضهم فصولاً وبعضهم يقول: القول في كذا وذكر الأخبار في كذا. ولا غضاضة في ذلك.

٣. تأثر المفسرون بعضهم ببعض، وأفاد المتأخر من المتقدم، وللطبري الفضل على من بعده فيما ذكره في مقدمته؛ إذ فتح لهم الباب.

٤. كل هذه المقدمات فيها فوائد كثيرة، لكن أفضلها تنوعًا وتأصيلاً وتأنيًا: مقدمة

ابن عاشور.

٥. أطول المقدمات:(ابن عاشور، الطبري، القرطبي، ابن كثير)، وأقصرها: (الزمخشري، ابن الجوزي).

٦. أطول مدة بقي فيها مفسر في تأليف تفسيره-مما وجدت في هذا البحث-هي مدة ابن عاشور؛ فقد بقي في تأليفه: تسعًا وثلاثين سنة وستة أشهر!.

٧. وجدت ثلاثة من هؤلاء المفسرين ذكروا سِنَّهم عند تأليف تفاسيرهم وهم: الزمخشري(ألفه وهو في أوائل الستين من عمره)، وأبو حيان(ألفه وسنه: ٥٧سنة)، والآلوسي(وسنه: ٣٤ سنة).

ثانياً: التوصيات:

١. رأيت أهمية قراءة هذه المقدمات قبل الشروع في قراءة مادة التفسير فيها، وأن القارئ لها يلج الكتاب وقد درى منهج صاحبه وما سيذكره وما سيدعه من العلوم والقضايا المعرفية، وأما من لم يقرأ تلك المقدمات وأراد قراءة التفسير فيها، فسيواجه بعض الإشكالات، ويغلط في ظنه وفي فهمه لبعض ما ذكر فيها؛ فلذلك أوصي بالعناية بقراءة مقدمات التفاسير قبل البدء بقراءة مادة التفسير فيها.

٢. الاهتمام بدراسات أكاديمية تتناول هذه المقدمات، وقد وجد بعضها، ولكنها تحتاج المزيد.

٣. دراسة بقية مقدمات التفاسير التي لم تتناولها هذه الدراسة؛ ففيها علم غزير يحتاج إلى النظر فيه، والإفادة منه.

فهرس المصادر والمراجع

١. الأعلام، لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، الناشر : دار العلم للملايين، الطبعة : الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م.

٢. البحر المحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

٣. البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، سنة النشر: ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

٤. البلاغة العربية، لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

٥. تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبي الفيض، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

٦. تاريخ الأمم والرسل والملوك، لمحمد بن جرير الطبري، أبي جعفر، الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.

٧. التبيان في آداب حملة القرآن، لأبي زكريا يحيى بن شرف الدين النووي، الناشر: الوكالة العامة للتوزيع - دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٨. تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الناشر : الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: ١٩٨٤م.

٩. التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: د. حسن هنداوي، الناشر: دار القلم - دمشق (من ١ إلى ٥)، وباقي الأجزاء: دار كنوز إشبيليا، الطبعة: الأولى.

١٠. تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي،

تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

١١. تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار (الجزء المفقود)، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبي جعفر الطبري، تحقيق: علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق / سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

١٢. تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبي جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني - القاهرة.

١٣. جامع البيان في تأويل آي القرآن،، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبي جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

١٤. الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

١٥. جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، لنعمان بن محمود بن عبد الله، أبي البركات خير الدين، الآلوسي، قدم له: علي السيد صبح المدني - رحمه الله -، الناشر: مطبعة المدني، عام النشر: ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

١٦. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

١٧. زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.

١٨. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،

الرياض، الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف)، عام النشر: جـ١ - ٤: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م. جـ٦: ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م، جـ٧: ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

١٩. سنن ابن ماجه، لمحمد بن يزيد، أبي عبدالله القزويني، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر-بيروت، بدون تاريخ.

٢٠. سنن النسائي الكبرى، لأحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق : د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، الناشر : دار الكتب العلمية -بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩١م.

٢١. الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري، الناشر: دار العلم للملايين- بيروت. الطبعة: الرابعة- يناير ١٩٩٠م.

٢٢. صحيح البخاري(الجامع الصحيح المختصر)، لمحمد بن إسماعيل، أبي عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، الناشر: دار ابن كثير، اليمامة -بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.

٢٣. صحيح الترغيب والترهيب، لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف -الرياض، الطبعة: الخامسة.

٢٤. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر : دار إحياء التراث العربي -بيروت.

٢٥. فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج، القسم الدراسي: د. جميل بني عطا، المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.

٢٦. القاموس المحيط، لمجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت -لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٢٧. الكشاف، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، الناشر: دار الكتاب العربي

–بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.
٢٨. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لمصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني، المشهور باسم حاجي خليفة أو الحاج خليفة، الناشر: مكتبة المثنى – بغداد (وصورتها عدة دور لبنانية، بنفس ترقيم صفحاتها، مثل: دار إحياء التراث العربي، ودار العلوم الحديثة، ودار الكتب العلمية)، تاريخ النشر: ١٩٤١م.
٢٩. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، عام النشر: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م.
٣٠. مجموع الفتاوى، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق: أنور الباز– عامر الجزار، الناشر: دار الوفاء، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.
٣١. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ.
٣٢. المستدرك على الصحيحين، لمحمد بن عبدالله، أبي عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية–بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ه – ١٩٩٠م.
٣٣. معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م.
٣٤. المعجم الكبير، لسليمان بن أحمد بن أيوب، أبي القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم – الموصل، الطبعة: الثانية، ١٤٠٤ ه– ١٩٨٣م.
٣٥. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة.
٣٦. مقدمة في أصول التفسير، تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، الناشر: دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، الطبعة: ١٤٩٠هـ/ ١٩٨٠م.

٣٧. النشر في القراءات العشر، لشمس الدين أبي الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، تحقيق : علي محمد الضباع، الناشر : المطبعة التجارية الكبرى [تصوير دار الكتاب العلمية].
٣٨. النكت والعيون، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان.
٣٩. هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لإسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي، الناشر: طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول ١٩٥١م، أعادت طبعه بالأوفست: دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان.
٤٠. الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، عام النشر: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٤١. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥
المطلب الأول موضوعات المقدمات ١١
المطلب الثاني وصف القرآن ٣١
المطلب الثالث الحديث عن علم التفسير وأهله ٣٧
المطلب الرابع تسمية المفسر لتفسيره ٤٩
المطلب الخامس حديث المفسر عن تفسيره ٥٦
المطلب السادس كلام المقدِّمين عن بعض الكتب ومؤلفيها ٧٩
المطلب السابع كُتب لأصحاب المقدمات أشاروا إليها في مقدماتهم ٨٤
المطلب الثامن منتقى الفوائد ٨٧
الخاتمة ١١٢
فهرس المصادر والمراجع ١١٤
فهرس الموضوعات ١١٩